

طاہر لائبن

حواء و بلا آدم

obeykandi.com

الرفاء

عزيزى الدكتور حسين فوزى*

لست أدري عند أى خط من خطوط الطول أو
خطوط العرض من ذلك المحيط الهندى الهائل ستصلك
قصتي هذه . ولكن الذى اعلمه يقينا انك ستكون فى
شغل شاغل حتى عن استلامها . . . ربما . . . فإِما على ظهر
السفينة وفى أقصى نشاطك البدنى ، وإِما بقمرة العمل
وفى أقصى نشاطك الذهنى ، تبذل جهد الجبابة لأداء
ذلك الواجب الجبار الذى أقدمت عليه أيها السندباد .
وقد تكون فى ساءة راحة من العمل الرسمى وقد اذت
بركن هادىء من أركان السفينة تبدو للرفاق منك

* مدير إدارة الاحياء المائية . وأحد أعضاء بعثة السير مرى Murray
التي ترزاد الآن المحيط الهندى

الطمانينة والهدوء على أنهم لا يعلمون أنك وقتئذ تكون
أشد توثباً وأعمق تفكيراً . . . ففي لانهاية المحيط ترسل
نفسك . . . نفس الوطنى الذى يتجشم من أجل الوطن ،
ونفس الأديب جم الخواطر والتأملات ، ونفس الفنان
مرهف الحس لما فى الطبيعة من جلال وجمال . فاذا ما
اصطخب الماء ، وزمجر الهواء ، دفعت إليهما بروح عصف
عساف ثائر على كل بال بليد . من أجل هذا وددت أن
أهدى إليك قصتى هذه ، لعلك تجد فى قراءتها فترة
أيناس وراحة ، ولتذكر بها

صديقك المخلص

طاهر

المقدمة

أراد الأستاذ طاهر لاشين أن يتدع أسلوباً جديداً
في كتابة المقدمات ، فلم يلجأ في ذلك إلى كاتب كبير
يستظل باسمه أو أديب ناشئ ، يرقى مدارج الشهرة بمؤلفاته ،
وإنما عمد إلى صديق ليس له جمهور وصديق ان هو عاجل
الكتابة والنقد حيناً وأكب على القراءة في أحيان كثيرة
فانه يفعل ذلك من غير أن يرجو شهرة أو يكون له مطمع
إلى هذا الصديق قصد الأستاذ طاهر لاشين ، وهو
واثق من شيء واحد : أنه يقصد رجلاً عرف فنه
القصصى منذ نشأته وهو يفهمه ويقدره كل التقدير
وهو في الوقت ذاته لا يسكت عن المعاييب

والواقع انى كنت دائم الاتصال بالاستاذ طاهر لاشين منذ أقبل على فن القصة . وشاهدت مقدماته الأولى فى سنة ١٩٢١ وتابعت قصصه التى أدت إلى روايته القصصية الحاضرة . ولقد ظهر منجى الأستاذ طاهر لاشين وتبينت فى قصصه الأولى كل العناصر التى تتذوقها فى « حواء بلا آدم » وليس أدل على صحة هذا القول من الرجوع إلى مجموعة القصص الأولى التى أطلق عليها اسماً ذا معنى هو سخرية الناي . ثم مجموعة القصص الثانية التى أسماها ببساطة . « يحكى أن »

فى « سخرية الناي » نجد الكثير من روح السخرية حقاً ونجد الكثير من الدعابة البريئة من السخرية ، أما نعمة الناي — تلك النعمة الحزينة الشديدة الحنو الدائمة الاستسلام — فلا نجد لها إلا نادراً

وأما ما كسبه الأستاذ طاهر لاشين فيما بعد فهو إهتمام باختيار الموضوع واشتداد قبضته على أسلوبه وتلك المرونة الفنية التى تفرق بين الأديب المتمكن والأديب

الناشيء...

ولكن هذه النعمة — أى نعمة الناي — كثيراً

ما نسمعها فى المجموعة الثانية التى نرى فيها تقدماً عظيماً فى
الفن القصصى ، ولسنا نريد بذلك أن الأستاذ طاهر لاشين
ابتدأ ضعيفاً فى فن القصص ، ثم تقدم تقدماً سريعاً ، ولو
أردنا هذا القول لما كان عيباً ، فالكثيرون من كبار
الكتاب تعلموا فنههم بعد مشقة وجهد ، وأمضوا فترة
طويلة فى المران على صنعة الكتابة قبل أن يصير لهم
جمهور ، وهذا أمر لا ينتقص من فنههم فى شىء على أن
الأستاذ طاهر لاشين لم يكن من هؤلاء ، فإن مجهوده
الأول فى القصة ، ولعلها قصة « فى قرار الهاوية » .
كان مجهوداً بارزاً جعله فى طليعة كتابنا القصصيين
ولم يكن عليه إلا أن يستمر ، وقد استمر ، ولكن ذلك لم
يحل دون أن يتقدم فنه بالنسبة لمجهوداته الأولى ولن
نسوق برهاناً على ذلك أدل من قصة « منطقة الصمت »
التي نشرها فى مجموعته « سخرية الناي » فأعجب بها أصدقاؤه

كل الأعجاب وهي تعتبر من خير قصص المجموعة الأولى،
وأما الأستاذ نشرها لأمر ما في مجموعته الثانية ولسنا
نستطيع أن نقول بأنها من خير القصص في هذه
المجموعة الأخيرة

يقوم فن الأستاذ طاهر لاشين على الفكاهة أولاً وهو
يعتبر دائماً في طليعة كتابنا الفكاهيين وفيه كل الصفات
التي نراها في عظماء كتاب الفكاهة، وفيه كل نقائصهم،
ولقد أشرنا إلى السخرية التي نراها في قصصه ولكن
السخرية ليست أساس فكاهته بل أن فكاهته من النوع
البريء المرح الذي قد يبعث على الابتسام أو الضحك
ولكنه لا يبعث على الاحتقار ونشعر من فكاهته أن
الكاتب يشفق على مخلوقاته ويحبهم ويريد منك أن
تشفق عليهم وتحبهم وهو لا يهزأ بنقائصهم بل يلتمس لهم
الأعذار، وينتحل لهم المبررات، ويحاول أن يدفعك إلى
غفران الذنوب، ولو أردنا تشبيهه بكاتب من كتاب
الأدب الأوربي لقلنا أنه أقرب إلى «ديكنز» الكاتب

الأنجليزى الفكاهى العظيم منه إلى «ثيكرى» الكاتب
الأنجليزى الفكاهى والعظيم أيضا

وقد يكون من الطبيعى — وإن بدا هذا القول
لأول وهلة غريباً — أن يكون الأستاذ طاهر لاشين من
أمر العازفين على الأوتار الحزينة . ولكننى أعتقد أن
بين الفكاهة وبين الحزن صلة إن تكن خفية فهى بعد
موجودة وهل نستطيع أن ننسى أن خالق «بيكويك»
الخالدهو أيضا خالق « نللى » الفتاة المسكينة و«أوليفر
تويست» ربيب الشقاء ؟ والواقع أن كل ذلك متوقف
على طبيعة الكاتب ، فالكاتب لا يستطيع أن يعمل
الفكاهة أو الحزن ولو فعل . وكانت مجهوداته سقيمة
لاغناء فيها فالمسألة إذن متوقفة على طبيعته — على قلبه —
والقلوب الكبيرة المتفائلة ، الدائمة الدعابة ، السريعة
الضحك هى دائماً سريعة التأثير بالأحزان ، والثناء لكوارث
الحياة ، وهى التى يسرع الدمع إلى ماقيها
فلئن الأستاذ طاهر لاشين جانبان ، أولهما وهو

الغالب عليه ، جانب الدعابة البريئة والثاني جانب التأثر
والشفقة ولكنهما تأثر وشفقة لا يذهبان بعيداً ولا
يدفعان إلى الثورة بل هما تأثر المتفائل بالحياة وشفقته ،
فالحياة خلقت من نعيم وشقاء ، وأناس الأستاذ طاهر
لاشين ينعمون ويشقون لأنهم جزء من الحياة وهم يرجون
الأجر والثواب أن لم يكن في هذه الحياة في الحياة
الأخرى وتلك الاستكانة فيهم تحملنا على أن نكون
أقرب إلى محبتهم وإن لم تدفعنا إلى احترامهم
ولذلك لا نجد في فن الأستاذ طاهر لاشين تلك
الألوان المظلمة التي نجدها في فن بعض الكتاب
الأوربيين ولا يجب أن نلومه على ذلك ، فليس ذلك مجاله ،
وليس من طبيعته ، والواقع أن هذه الألوان المظلمة لم تظهر
بعد في الفن القصصى المصرى وقد نغبط لهذا الأمر ففيه
دليل على أن الشقاء الاجتماعى لم يبلغ في هذا البلد حداً
يدفع الى اليأس والتمرد أو هو بلغ هذا الحد ، ولكن
البركان لا يزال ساكناً

ولكن اذا كان الأستاذ طاهر لاشين خلا لحظة
من تلك العوامل التي توقفه على أعماق الشقاء وتلقى على
الحياة نقاباً أسود فهو مع ذلك ذو نفس بوهيمية وقفت
على دقائق الشقاء البهيج والأعمال الراضية والجوع الباسم
ومن هنا كان وصفه للحياة الفقيرة دقيقاً وحيماً ونافذاً،
وتجد أمثلة طريفة في أكثر قصصه ولعل الأقرب إلينا
أن نقبس مثالا من رواية « حواء بلا آدم » فاقراً هذا
الوصف البديع :

« وكان الحاج في حالة طبيعية بحثة ، وكان مخلداً
الى غرفته . ومعنى هذا الاخلاذ أن يكون دائم الحركة
ذهاباً وإياباً وانحناء واستواء حتى ليحسبه الرائي مأجوراً
أجراً حسناً على إحداث أكبر مقدار من الفوضى في
محتويات هذه الحظيرة . ومحتوياتها شتى ومتنافرة ، الجدير
بالذكر منها سرير من جريد النخل عليه مرتبة من قش
الأرز تمادى به الزمن والاستعمال حتى تكفل وتصلب
وعلى السرير كتب وخبز ومراة عديمة الشكل وعمامة

الحاج اذا لم تكن فوق رأسه ، ومنشفة للوجه لا تجد
الأنف بين قطوعها مكاناً الا بالمهارة والحيلة . أما اللحاف
فقد يحتل جزءاً من فراغ النافذة ، وأما الوسادة فلها رحلة
النهار والليل ففي الليل تؤدي عملها كاحدى بنات جنسها
وفي النهار تكون على الحصيرة يجلس عليها الحاج فوق
الفراء الذى تنعم به عليه « الست الكبيرة » كل عام .
وفي إحدى زوايا الغرفة حبل مشدود ينوء بحمل من
ملايس لم يعد الحاج يستعملها إشفاقاً على نفسه وعليها .
إنما يحتفظ بها وفاء لعهد السنين الطوال التى قضتها فى
خدمته . أما الجبة والقفطان الحاليان فلهما مسمار خاص .
على أنه ليس بالمسمار الوحيد ، بل هناك كثير غيره :
فواحد تشدلى منه زجاجة ، وفى الزجاجة زيت . وثان
يحمل مصباحاً وللمصباح هباب على الحائط ، وثالث
لجراب فيه المصحف الشريف ورابع وخامس
وخامس عشر . وفى كل مكان صناديق من ورق أو
صفيح محكمة الغلق ليس من يدري سوى الحاج ما فائدة

الهواء المحبوس فيها »

على أن فنه لا يخلو من النقائص التي تكون أبدأ ملازمة للكتاب الفكاهيين ، أغنى الميل الى المبالغة والى الألوان القوية التي تظهر شدة التناقض ، ولكن الأستاذ طاهر لاشين يشعر بهذه المعايير ولا يستطيع التخلص منها فيخفيها في أكثر قصصه بمهارة بحيث تنسجم ولا تظهر إلا للعين الفاحصة ويساعده على هذا الخفاء أسلوبه البديع المبتكر ولعل أكبر نعم الأدباء المجددين على الأدب في عصرنا هذا هو الأسلوب الذي بدأ ينمو على قواعد جديدة ويقوم على أسس صحيحة فقد ذهب الزمن الذي كان الكتاب فيه لا يطمحون الى غير بلوغ مرتبة كاتب من الكتاب الأقدمين ويحاولون عبثاً محاكاة بال تقليد فاذا ما بلغوا شيئاً من ذلك اعتبروا أنفسهم في مرتبة الأدباء ، أو اعتبرهم الناس ، أما اليوم فنحن نفهم غير هذا ، أو أن أكثرنا يفهم غير هذا ، على الأقل كتاب الشباب . فالغرض الذي يقصدونه هو الابتكار لا التقليد ، وهم يقرأون

الكتب القديمة لا على أن يتخذوها مثالا ، بل على أن
يقفوا منها متفرجين ، لأنها تمثل عصرًا ذهب وانقضى
وتمثل زمنًا كانت وسائله محدودة وحضارته مهما قيل فيها
فهي لم تبلغ قط مبلغ الحضارة التي نعيش في كنفها أعنى
الحضارة الأوربية

واليك كاتبًا من كتاب الشباب ذوى الآمال
الجديدة الطموحة ، يتقدم بعمل جديد ، فاقراءه ، واحكم الى
أى مدى أصاب فى غايته .

حسن محمود

هواء بے آدم



— السلام عليكم يا ابا درش

الفصل الأول

— السلام عليكم يا أبادَرش

وكان الحاج إمام يتوقع أن يسمع الرد غليظاً وثيداً
ولكنه لم يسمع . فمد عنقه كثير الخطوط المتقاطعة في
عرض القفى ، والمتوازية في طول القصبة الهوائية ، فنفذت
عمامته من فرجة تُباعد ما بين أنياب الأفعى يميناً ، ومخالب
الضبع شمالاً ، وظهر الساحفة من أسفل ، وأظافر الوطواط
من أعلى . فلم يفلح جهد عينه اليسرى في اختراق العتمة
المتكاثفة . أما العين المجاورة فلم يكن لها جهد تبذله .
وأتقذت أذناه الموقف بأن سمع همهمة فهمها فقال ، « حرماً »
وأخرج عمامته . ولولا احتكاك كتفه « بدم الأخوين »

احتكاكا أدركته منه ومضة هلع لقلنا أنه خرج الى النور ،
وجلس على مقعد في سلام

ولما كانت «أبو درّش» كُتِبة ودية لاسم مصطفى ،
وكانت « حرماً » اختصاراً مألوفاً لقول القائل لمن هو
ماض في الصلاة أوفرغ منها « أريدت بالصلاة في الحرم
الشريف » كنا في غير حاجة الى غير الذكاء العادي لنعلم أن
الحاج امام وجد صديقه مصطفى يصلي فجلس ينتظر فراغه .
ولكن الذكاء غير العادي مطلوب لمعرفة كنه ذلك
المكان الذي كان فيه مصطفى ! أمغارة هي لاذ بها يقيم
صلاته ؟ وساحر هو قد هيمن على الزواحف والضواري .
فأخذ منها حراساً وحجاباً ؟ وكيف يجمع العقل بين حاج
ودم وسلام !

واذا أضفنا ذلك الى أن خرزاً مختلف الألوان ،
وأصدافاً متجددة اللعان كانت تتدلى حول الفرجة
السالفة الذكر ، وأن ستاراً من عشب كشعر العجوز

كان منتشر الذوائب ، تبين وتختفى وراءه ثمار عجيبة لها أسماء أعجب ، يعلو هذا وهذا سمكة هائلة اتخذت من الهواء محيطاً تسبح فيه . . . إذا زدنا ذلك زدنا الذكاء غير العادي تشككا وارتباكا .

على أن الأمر أهين من أن تدوم له الظنون طويلا . فما دم الأخوين الا حجر القيت عليه هذه التهمة لمجرد احمرار لونه . وما هذا الا محل تجارة « الشيخ مصطفى التونسى » لبيع كافة أدوات السحر . مما يجمع القلوب ويفرقها ، ويقطع الرزق ويوصله ، ويثبت العقول ويشتهاها حسب الطلب : هذا وإن مما على بابه من أعشاب وثمار ماتبيض له صحائف « الفار ما كويا »

وكانت الساعة الخامسة وقد هان أوار الشمس بعد أن ظل طول اليوم يرهق النفوس ويشوى الوجوه . . وأقبلت عربية الرش منذ حين ، فبالغ الناس فى تعليق سائقها بالقول الذهب والقطع النيكل . والسائق

بيادهم ذهباً بذهب ونيكلاً بماء مدرار اغرق الشارع .
وهب نسيم العصر . . . فحمل البالي فصار نيناً و بليلاً .
وتنفس الناس الصعداء . . . فلا عجب إذن أن يجلس الحاج
في سلام ، وأن يتنفس مع الناس الصعداء . وما ان جلس
حتى أسند عصاته إلى باب الدكان ، وضم إليه أطراف جيبته .
وبعد أن أمر يده على لحيته الفضية بكيفية من يستوثق
من وجودها مكانها شرع يهز عنقه ويتمم بما تيسر من
القرآن . ومن فترة إلى أخرى كان يقبل عليه عارفو
فضله فيلثمون يده ويسألونه الدعاء . . . على أن آخرين من
شياطين الحى إتخذوا من عمامته هدفاً لنكات وفكاهات .
— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . . .

ها قد جاء رد التحية . وبرز بائع السحر فجلس إلى
صاحبه . وأعاد الحاج قوله « حرماً » فأجابه الشيخ
مصطفى بقوله « جمعاً »

وهنا خرست الألسنة المعرودة . ذلك لأن الشيخ

مصطفى كان مهيباً بقوامه الضخم ولحيته المرسلة على صدره
بما فيها من مشيب قليل ونزيرة البدوي الأبيض وما
أشاع في شأنه من أن النبي صلى الله عليه وسلم زاره في
المنام يوماً وأمره بإتخاذه . رهيباً بعينيه السوداوين وما
تحدقان فيه من عالم الأسرار ، فاشتد أزر الحاج أمام وراح
يقول لصاحبه ويُسَمع الآخريـن :

— نحن في زمن نعوذ بالله من شره . . اللهم اكـتب
لنا السلامة من . من زمن الـ . . . الأوباش والسفلة .
لاحياء ولا إعتبار للسن ولا للعلم . . اللهم لا تؤآخذنا
بما فعل السفهاء منا . . .

وكرر الدعاء الأخير ثلاثاً . ثم تريت يرجو أن يسمع
كلمة صديقه في نجاته . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ،
إلا إبتسامة فاترة بدت على شفـتي الشيخ مصطفى وهو
ثابت كالطود . فزاد الغيظ بالحاج ولم يكن يستطيع أن
يعاتبه . لذلك أقنع نفسه بأن الحلم سيد الأخلاق . وعمد

بعد فترة إلى ما جاء من أجله . فقال حتى لم يبق إلا القليل
بين صدره وركبتيه ثم قال بصوت خفيض :

— الست تهديك السلام .

فالتفت الشيخ مصطفى إليه نصف إلتفاتة وقال :

— كيف حالها دلوقت ؟

— الحمد لله ..

فتمتم الشيخ بالحمد أيضاً

— البخور الأخير دا .. داشىء عظيم خالص يا ابني ..

صحيح يؤتى الحكمة من يشاء .. جل جلاله !!

فأطرق الشيخ يبدى الحياء . ويتمنى لو يجهر

« الزبون » بما يقول فيسمع أكبر عدد ممكن من الجيران

والمارة . وما من شك في أن تواطأ روحياً حدث بين

الاثنين جعل الحاج يستطرد بالصوت المطلوب :

— دا البخور دا يا ابني طرد عنها الهواجس .. وشرح

صدرها للغاية

فهرز الشيخ مصطفى رأسه في بطنه متناه وقال :

— الله يقدرنا جميعاً على فعل الخير

— اللهم آمين

وتكررت عملية الدعاء من الشيخ والتأمين عليها
من الحاج ثلاث مرات كل منها أشد من سابقتها ورعاً
وإخلاصاً .

— فالست عاوزه منه بخمسة قروش

فقابل الشيخ مصطفى هذا الطلب بالتحديق في
عالم أسرارهِ . وقال الحاج بعد فترة

— وعلى فكرة يا مصطفى يا ابني ...

وفي هذه المرة بالغ في الاقتراب من الشيخ حتى كان
يحدث أحياناً أن لا يجد زرعمامة الاول مندوحة عن أن
يشتبك مع لحية الثاني تارة في ود وأخرى في رعونة على
قدر فتور الحديث أو إحتداه . وبالع في تخفيض صوته
حتى صار الأصغاء إليه كالأصغاء إلى تليفون خرب . على

أنه كان يوضح همسه بالأشارات الصارخة . فأمال رأسه
على راحته ، أغلب الظن أنه يمثل النوم ، ثم إنقبه ، وحملق
بميينه --- يعبر عن اليقظة تعبيراً يحسده عليه كثير من
نجوم السينما ، ثم رفع ذراعه جهد استطاعته حتى سقطت
عنه أكمامه فبدا ناعلاً أصفر كثير العروق . ثم خفضها
بسرعة نحو الأرض لأمر من العبث التكهّن به .

وسادت فترة سكوت

— أى والله كذا بالضبط الشافى . . فما قولك فى

هذا الحلم العجيب ؟

— الشمعة عز . . والنور فرج

— أنا قلت كده كمان . . أو عندك تفسير تانى ؟

— الأحسن تمهلنى يوم أو اثنين

— على راحتك

وشمر الحاج أنه أدى مهمته خير أداء ، فأخرج علبة
النشوق من بين محتويات عبّ الأيمن ، واستل منديله

الأحمر من بين محتويات عبه الأيسر ، ومضى يحدث بأنفه
شوشرة كبرى ، ثم شوشرة أخرى وهو يبيح نشوقه
لأصحاب الحوانيت المجاورة

وانتهز الشيخ هذه الفرصة ، فغاب في جوف حانوته
واعمل يديه في صناديق مختلفة حجماً ، متساوية قذارة
وصداً ثم عاد فتبادلا البخور والتمن ، وساد بينهما السكوت
إلى أن قطعه الشيخ مصطفى بقوله ،

— وكيف حال الست الصغيرة ؟

— حوا ؟ الله يزدها من نعمائه

وكلفه هذا الدعاء أن قارب ما بين معالم وجهه ، ورفع

لحيته إلى السماء جهد استطاعته ثم قال :

— دى يا مصطفى يا ابنى ملاك . كمال ، وأدب ،

ورأفة بالمسكين اللى زى حالى (وبعد فترة) يعنى أناأيه

بالنسبة لها ؟ ابن عمة الست الكبيرة .. وعمه مش شقيقه

كمان .. مع ذلك فهي تكرمنى كل الاكرام .. الحمد لله

(وقبل يمناه ظهراً وبطناً) علشان كده ربنا فاتح عليها
من جهة المدرسة . ومن جهة بيت الباشا . وهى اشترت
النص التانى من بيتهم . . . دفعت فيه ثأمية جنية
-- بيعة مستريحة

-- بركة نيتها ! . . مين من بنات اليوم تعمل كده ؟
-- أعوذ بالله

-- أرحنا شايفين ، مافيش غير الدلع والفرنجيه . . .
وهمّ الحاج بأن يرسل فى نوبة خطائية ، لأن معانى السخط
على مفاصد المدنية الحاضرة ترا كضت فى رأسه ، ولكنه
اضطر الى الامساك عن الكلام ، ثم الى أخذ عصاته
والقيام لأن غيره احتل اهتمام الشيخ مصطفى ، وحاول
أن يتم محاضراته لبائع فاكهة مجاور ، ولكن البائع كان منهمكا
بالتغنى بمحاسن بضاعته ، فعرج على قصاب ، فاذا به فى
شغل بارضاء زبائنه وسرقتهم معا . فأخذ سبيله الى المنزل
وهو يتم محاضراته لنفسه .

الفصل الثاني

هو بيت لا يلفت النظر ، يقوم في شارع ثانوى من
حي الحامية . بل لعله يلفت النظر بكونه أصغر بيوت
تلك الناحية العامرة بالكثير من القصور ذات الحدائق
والعمد والسلام العريضة الملتوية . قال الحاج امام ان حواء
اشترت نصفه الثانى بمبلغ ثلثمائة جنيه . فاذا فرضنا حسن
الظن بالحاج ، وفرضنا كذلك تساوى النصفين ، صار من
السهل ايجاد فكرة عن البيت . . مدخل مستطيل ضيق
الى حد ومعتم الى حد . وغرفة الى اثمين لها نافذة على
الشارع ، ومفتاح معلق فى رقبة الحاج امام . والمدخل يؤدى
الى صحن غير فسيح ، تغطى الجزء الأكبر منه أرض

الصالة العليا وباقيه الى السماء ، ثم السلم ، فالصالة العليا ،
وبها المائدة . وحولها أربعة أبواب ثلاث غرف ودورة
المياه . . اما الغرف ، فواحدة للاستقبال - ولها باب ثان
يؤدى الى السلم ، وثانية لحواء ، وثالثة للجدة
هدوء في البيت شامل . لانامة ولا صوت كأن ليس
في البيت أحد !

بل الجدة في غرفها ، والجدة لا تحدث نامة ولا
صوت ، كأنها لا أحد . . .

وغرفة الجدة بسيطة الأثاث ، وكل ما فيها عجوز
مثلها . . . سرير في الركن الأيسر رفيع القوائم وكانت القوائم . .
سوداء ثم ابيضت في مواضع عدة ، ووهنت مفاصلها
فهي ترتعش لأقل حركة . . . وكنبة في الصدر تحت النافذة
تضرع الى الجالس ضراعة المرهق وتئن به أنين الموضع
حتى ليشفق عليها ويقنع بالجلوس على الأرض أو بالأحرى
على بساط لا تكاد الوانه توجد في «الطيف» وتضيف

الجددة لنفسها فوق البساط فراء هو فراء كبش الأضحية
تدبغه يديها كل سنة أما القديم فتنعم به على الحاج امام
وقبالة السرير صندوق كبير من خشب مغلف بصفيح .
وكان على الصفيح نقوش . وكانت النقوش حمراء وصفراء
وخضراء ، عدا عليها الصدا فأفقدتها بهاءها . وفي الركن الى
يمين الباب طاولة داكنة اللون تستند إلى الحائط استناد
المتعب من طول ماوقفت ، عليها غطاء من خيط مشغول
صنعتة الجددة أيام كانت لها عيون تمن النظر ، وأصابع تحكم
الأبر ، وصبر يطبق تلك التسلية . على أن غرفة الجددة مع
هذا نظيفة مرتبة ليس فيها مالا حاجة اليه ولا مالا ليس
في موضعه . وفيها أبداً رائحة بخور لا يزعج النفس ، بل
يبعث فيها معنى الجلال .

وكانت الجددة جالسة على الفراء — بين سريرها
والكنبة وأمامها أدوات القهوة لا يلذ لها الا أن تعدّها
بنفسها وقد فرغت من احتسائها منذ حين ثم أسلمها

الركود الى النعاس فراحت تهوِّم ، وسرت منها العدوى
الى قطها فاعتلى الكنبه عند كتفها واستكان

وأرسلت الشمس آخر اشعتها تحي الجدة النعسانه
واسترسل النسيم يغرى بها الراحة وعلى شجر الحدائق
المجاورة أسراب العصافير تستبق الأغصان ها مسات
كصبية تلعب فى حذر . وفى السماء الزرقاء قطع السحاب
تسير الهوينى كأنما تحمل رسالة الرحمة

لئن كانت عيناها المغمضتان تنظران الآن الى الماضى
فهى انما تستعرض من حياتها صوراً أشتى .. تلك العينان
الغائرتان كانتا فى هيئة اللوز ، ولهما بريق وفتنة .. وتلك
الحدود المتجعدة كانت فى مثل ايناع الورد ، وهذا الجسد
الضامى كان قواماً غصنا رياناً بالعافية .. وهذه الروح
المستكنة كانت لا تمل النشاط والحركة

ولكن ..

زوجها الذى سيقى اليه لم يعن بجمالها ، ولم يأبه

بأخلاصها له ، ومضى يطيل السهر فتنتظره ، ويعود محمورا
فتحتمله ، ويغلظ في القول فتتغاضى ، ويحجف بحقوقها
فكأنما حقوقها كاملة.. وكان أول الأمر موظفا صغيراً ولكنه
كان لا يؤمن بأن الخط المستقيم هو أقرب بعد بين نقطتين ،
وكان يعرف تعاريج الحياة ومجيد خاق الظروف واغتنام
الفرص . فسار في هذه وإستفاد من هذين حتى علا ، بيد
أنه كان طموحاً لا يقر ، ولا يبالي أى الوسائل يتخذ ، ولا
أى السبل يسلك مادامت تؤدى به إلى « روما »

وما كان السهر ، وما كان الخمر إلا جداً منه لاهزلاً .
فهو يهوى إلى موائد من يرى عندهم حاجته ، وهنالك يرتد
الفكه المهرج . بهذا تخطى أقرانه الذين أحسنوا الظن
بالحكم والأمثال ، فهم إلى مكاتبهم يحدّون لعلمهم يحدّوا ،
ويزرعون رجاء أن يحصدوا ، ويصبرون منذ قيل لهم
الصبر مفتاح الفرج .. وعثر في بعض تعاريج الحياة على
رجل له جاه ولقب ، وله ابنة فأتت سن الزواج ولم تزل

في سوقه . وكان سكيراً فتحبب إليه بالسكر حتى إنتقلا
من صديق وصديق إلى حمى ونسيب ! ! على شرط أن
يطلق زوجه الأولى . فطلقها بحجة أنها لم تلد له إلا إناثاً . .
وأنه يريد « النسر الصغير »

وكنّ ثلاث بنات صغار . ماتت الأولى بعد الطلاق
بقليل ، وكبرت الاثنتان ، فأما الوسطى فتعيش مع زوجها
المهندس عيشة تنقل في الأقاليم . لا تراها إلا في الأحلام
وفي أيام الأعياد . وأما الصغرى فأودت بها حمى وبائية
على غير إنتظار . . وخلفت حواء . . ولم تتجاوز العاشرة .
فاحتضنها الجدة بعد أن تزوج أبوها ، وأغدقت عليها
كل ما في المرأة من أمومة ، وتناساها الأب بعد حين ،
فسخت عليها جهد ما كانت تصيب من ريع لها — وكان
قليلاً — حتى تخرجت من « المدرسة السنية »

فلا عجب إذن إن امتزجت روح الجدة بروح
الحفيدة . . لا تعيش إلا بها ، ولا تفكر إلا فيها ، ولا

يمنعها الوقت المبكر أو السن المتأخر عن أن تهيب لها
أسباب الراحة .

وإن حواء لجديرة بما يحبوها به هذا الملاك الحارس ،
فقد أوتيت منذ حداثتها العقل الراجح والخلق الكريم ،
وكانت الجدة قريرة النفس بمنزلها . لا ترى في العالم سواء ،
فهي لا تبرحه إلا للضرورة القصوى ، ولا يكل من واجباته
جسدها الضاوى ، وكان ذلك يستغرق الصباح كله .. ولولا
الخادمة وصوتها العالى لكان المنزل دائماً فى صمت
عميق . فاذا ما جاء العصر أخذت إلى فراشها تحتدى
القهوة .. وحدها أو مع زائر يقد عليها

تلك حياة قوامها العاطفة .. العقل فيها راكد ..
والعقل يأبى الركود ، فاذا حاول أن يرضى الفطرة لم
يستطع إلا العمل التافه من التشييت بالتفائل والتشاؤم ،
 وإقامة الوزن للأحلام ، ومن ثم الاتصال بالجن والشياطين ،
تُخذ لهم الأسماء ، وتُسبغ عليهم الملل والنحل والأشكال

والألقاب . ويبايعون السيادة ، فيخضع العقل السقيم لهؤلاء « الأسياد » الذين اخترعهم .

وقد قنعت الجدة من كل هؤلاء « الأسياد »

بغفريت صغير من غفاريت السودان ، اسمه « سرور » ..

ففي ساعة مناسبة أو غير مناسبة ، وفي مكان مناسب أو

غير مناسب ، يحدث ما يُدهش ويُخيف ويُجفل

ويضحك ... إما بهذا الترتيب ذاته ، أو بأى ترتيب

سواه .. يحدث أن تنابها أوجاع في مفاصلها واسترخاء

في جسدها ، فتستسلم للوجوم ، وتختلج عيناها ، ثم تتحرك

شفتها بصوت الولد الصغير .. هذا « سرور » تقمصها .

وقد يكون فرحا يطلب الحلوى ويداعب من حضر ..

أو ساخطا فيعلن سبب سخطه .. على ان الحق الذى يجب

أن يُعترف به أن « سرورا » أدرك أن تلك الحال لأصبحت

لا تتفق مع وقار الجدة ، فهو لا يتقمصها الآن اطلاقا ،

ولا يزورها إلا نادرا .. فى بيتها .. بل فى غرفتها .. بل

في نومها .. انما .. إذا أمر بشيء ، وجب قضاؤه ، وإذا أتى
بنبأ فهو الحق اليقين ...

طرق على الباب ..

فانتبهت الجدة من اغفائها ، وقامت تفتح وهي تعلم
من الطارق .. فالحاج إمام وحده هو الذي لا يؤمن
بالجرس الكهربي ، ويرى عصاته للباب أقرب للتقوى .
وعادت الجدة إلى مكانها ، ولاذت القطة بحجرها هذه المرة .
وخلع الحاج عند الباب حذاء ضاعفته الرقع ، وثلثت اضعاغه
القذارة وجلس تجاهه على البساط مسنداً ظهره إلى الكنية
وواضعاً عصاته تحت ركبته ، ثم قال وهو يلهث

— السلام بتعبنى قوى يا فاطمة هانم يا بنتى ..

وفاطمة هانم هو اسم الجدة . وقد اعتاد الحاج أن
يمنح أبوتّه لكل مخاطب ليفوز منه بما تقتضيه الابوة
الفقيرة من عطف ومعونة .

قالت فاطمة هانم وهي تعد القهوة ..

— اعمل معروف يا حاج .. شد حيلك معنا

الايام دى

— الاعمار بيد الله يا ست هانم (وأخرج علبة
النشوق فأصاب منها ، وأكب فى جلسته) كان سيدنا
على كرم الله وجهه .. أطلعه الله على غيبه .. فعلم أن
أبو لؤلؤة المجوسى سيقتله فى يوم كذا ..
فقالت فاطمة هانم :

— جبت البخور ؟

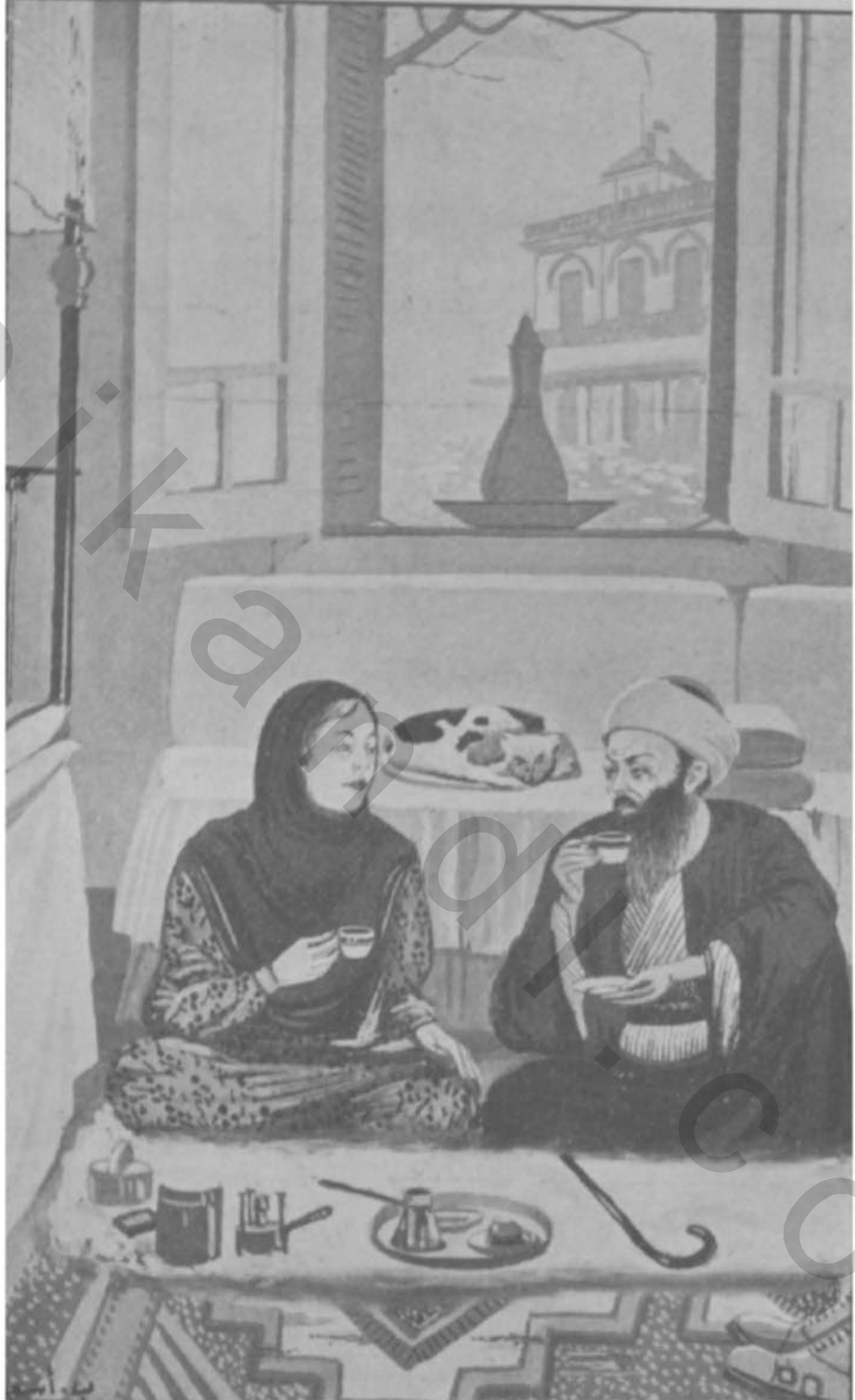
— أى نعم (وأخرج اللقافة من عبه) وكان أبو
لؤلؤة المجوسى يمر على سيدنا على كل يوم ..
فقالت فاطمة هانم وهى تضع اللقافة تحت وسائد

السري :

— ما قلتش للشيخ مصطفى على الحلم ؟

— أى نعم .. قلت له على الحلم . وشرحته

شرح وافى .



قالت الجدة : قلت للشيخ . مصطفى على الحلم ؟ . .

— وقال لك إيه ؟

— زى ما سبق قلت لك .. الشمعة عز . والنور فرج

— ما هي المسألة مش مسألة شمعة وبس يا حاج

وشرعت تقص عليه الحلم بتفاصيله مرة أخرى .. لقد

رأت في منامها أن عفريتها « سروراً » دخل عليها وأهاب

بها أن تتبعه إلى الصلاة .. فتبعته .. فاذا الصلاة أفسح مما

هي عليه بكثير، وإذا وسطها شمعة بطول القامة ، وكانت

مضاءة، وكانت تذوب بسرعة مذهشة حتى فرغت، فتكون

من مادتها السائلة هيئة جسد نائم مالفف بغلالات رقيقة،

ففزعته وأرادت أن تستفسر من « سرور » عن ذلك ، ولكنه

تركها وجرى على السلم، فاستغاث بالحاج أن يلحق به ..

عند ذلك قال الحاج إمام :

— أهو الشيخ مصطفى قال زى ما قلت لك ..

الشمعة عز والنور فرج

ومع أن الحاج قال ذلك بالهجة التاكيد ، إلا أنه كان

يوجس خيفة من هذا الحلم منذ سمعه للمرة الأولى. وخطر
له أن ربما هو المقصود بالشمعة التي تحترق . وأن منيته
قد دنت . واكر به خاطر الموت فعمد الى تغيير مجرى
الحديث فقال :

— فين نجية (وهي الخادمة) ما حدث سامع لها
حس ؟

— كانت حوا قالت لى الصبح أبعت لها نوتات
البيانو على بيت نظيم باشا الساعة أربعة . فبعتها توديعهم ،
وأهى لحد دلوقت ما جتش .

— مع إن بيت الباشا مش بعيد
— عاوز حاجة ؟

وأطرق الحاج ، وسكتا . . وفى هذه الفترة كانت
الرغبة فى تغيير مجرى الحديث قد سوّلت للحاج أن يفضى
إلى فاطمة هاتم بشكوكه فى علاقة نجية بشفيق ابن الجزار :
فقد حدث يوما أن خرج الحاج من غرفته ، فسمع عند

السلم همساً يقول « ابعد عني !! » فتقدم يقعقع بحذائه .
ليستبين الأمر جهاراً . وامتقع وجه الفتى . وتأهب الحاج
ليثار للفتاة الساذجة .. ولكن الفتاة الساذجة تظاهرت
بأنها هي التي رمت اللحم عمداً ، فهو ردىء رداءة يدركها
من له عينان !. لذلك كان للحاج كل العذر في أن لا يرى
تلك الرداءة ، وأراد أن يقع الفتاة بخطئها ، ولكنها
استشاطت غيظاً وأتهمته بأنه يحابى الجزار لأن الجزار
يحابيه حين يشترى لنفسه .. وهددت بأن تعلن المؤامرة
إلى سيدتيها . ولما كان الشطر الثانى من الاتهام حقيقة
واقعة ، فقد خاف الحاج أن تنفذ الفتاة الساذجة
وعيدها فتسبى السيدتان الظن به من ناحية ، وتبطل محابة
الجزار له من ناحية أخرى . فجعل يلاطف نجية حتى
أذعنت لقبول البضاعة ، وسر الحاج بما أبلاه وما أبداه
من كياسة ومهارة فى الاقتناع .

هذا مادار فى خلد الحاج وهو مطرق . ولكنه لم

يكن وقتئذ من راحة النفس بحيث يخوض في حديث
كهذا . وأعادت فاطمة هانم سؤالها :

— عاوز حاجة ؟

— لا . كتر خيرك . أهى كذانت تسلينا بعبطها ..

وشربا القهوة ساكتين وكلاهما في شغل بهذا الحلم ،
وأخيراً قال الحاج :

— ماتخدش في بالك

وكان انما يواسى نفسه . فحركت فاطمة يديها
حركة الرضى بما يجىء به القدر . عند ذلك استأذن الحاج
في الانصراف لأداء فريضة المغرب قبل الفوات .

وبعد قليل ارتفع صوته في غرفته ينوى صلاة المغرب
« ثلاث ركعات حاضراً . مستقبلاً . الله أكبر . . »

الفصل الثالث

في هذا الجو نشأت حواء . وكان خليقا بها أن
تكيّف نفسها لهذا المحيط ، وأن يصبح عقلها كهفا للجنة
والشياطين وقاموسا بأسمائهم وأنسابهم وطقوسهم ،
وخزانة لما يحتاج اليه هؤلاء « الاسياد » — ذكورا
وإناثا — من طواق من خرز ، وقلائد من ودع ،
وخواتم من فضة ، وتشكيلة كبرى من القلائد
والمسوح والسراويل ، والخناجر والسيوف
وما كان عجيبا لو أنها نشأت قعيدة بيت يلفها
احساس الأنوثة في أرخص معانيها ، لا ترى لحياتها رمزا
إلا جسدها تحبوه وتجلوه استعدادا لريجة بهيمية موفقة

أو غير موفقة وما كان عجيباً لو أن الشباب والفراغ دفعا
بها الى الشارع وأن الجهل والسذاجة استدرجاها من
الشارع الى الهاوية

انما العجب والاعجاب معا أن تنشأ حواء لا يتعدى
البخور أنفها ولا تتخطى التائب رضاءها الساخر . فهي
تألف ماحولها ثم تأنف منه ، وتقف شخصيتها في هذا
المحيط صلبة بأسقة . . وكان ليتمها وفقرها أول الأثر في
ذلك .. كانت وهي طفلة ترى أترابها يذكرون الوالد
والوالدة ، ويزأطن بما جاء به الوالد وما ستجىء به الوالدة
وهي بينهن حائرة العين معقودة اللسان ، لن يجىء لها
الوالد بشيء لأنه أهملها بما جدّ له من بنات وبنين ، ولن
يجىء لها الوالدة بشيء لأنها ماتت !! وأدّى بها ذلك الى
أن تكون قليلة الكلام قليلة اللعب . . وكأنما أرادت أن
تأثر من ظروفها القاسية ، وأن تتحدى أترابها في زئيطهن
ومباهاتهن ، فعمدت الى التفوق عليهن جميعا . ومضت

فيما أوحاه اليها وجدانها .. تذاكر وتشاير .. غير حافلة
باشفاق جدتها عليها من مرض أو حسد .. فبان تفوقها،
وأصبحت بارزة في أثرها مميزة

فلما رأت الجدة اصرار حفيدتها على خطتها، اكتفت
بأن تحوطها عن بُعد، وأن تبادل الحاج إمام نظرات
السرور كلما جاءتهما حواء من أنبائها بما يسر، ونظرات
الانتصار كلما أعلنت لهما نصرا .. وكان الشيخ والشيخة
يعتقدان أن لبخورهما وتماثهما في هذا أو ذلك النصيب
الأكبر، ويصارحان حواء أحيانا بما يعتقدان، فتبذل لهما
الدعابة الحلوة ويمضي كل فيما يعتقد ..

وحدث بعد تخرجها من المدرسة السنية — بتفوقها
المعهود — أن اختيرت للسفر الى إنجلترا للتخصص في
الرياضيات ففرحت، ولكن «سرورا» غضب. وأقسم لن
تبعدها عن عينه أبداً. وتآزر مع الحاج إمام والشيخ
مصطفى في البر بهذا القسم. فكتبت الآيات على جلد

الغزال ودُست في الوسائد ، ورُسمت الرسوم على الأطباق
بالزعفران وغسلت بماء من المساجد ، وأريق الماء على
الأعتاب والسلام ، وكثير من أعمال أخرى أجهدت رأس
الجدة وأمهكت بدن الحاج وأدرّت على مصطفى ..
وأخيرا ..

خفت موازين حواء ورجحت موازين فتاة أخرى
كانت تنافسها . وقد يكون أن « سرورا » قفز من كفة
حواء فخفت ، وتعلق بكفة الأخرى فرجحت ، فهذا قول
يؤيده ما رآه الحاج في منامه رأى العين . على أن حواء
أكبت وقتئذ على مكتبها ، ومضت ترد على خطاب من
صديقة لها اتصل بها ما حدث فأرسلت تواسيها :
« عزيزتي

« لقد كان لخطابك صدى عميق في نفسي بعد تلك »
« المهزلة التي قدّرت أن أفتتح بها حياتي العملية . والتي »
« أحسست فيها لأول مرة في حياتي بمس لكرامتي . »

« وشعرت منها بخيبة أمل فظيعة .. نعم .. »
« وفي الحق أن ثورتى أصبحت الآن ليست ذاتية »
« ولسكن على الفوضى .. الفوضى المنظمة المحبوكّة »
« النسيج ، الموشاة الاطراف ، من النفاق والتواطؤ »
« الدنىء بين الطبائع البشرية التى أنا وانت غريبتان »
« عنها .. غريبتان عن تلك الاوساط التى حكمت علينا »
« الأقدار بعلامستها وملاستها »
« وطبعاً هذه الغربة جعلتني حائرة فوجدت »
« منفذاً فى ثورتى التى بلغت أمرها والتى كنت أنكر »
« نفسى لو لم تحدث حيال هذا التواطؤ ، وأمام هذا »
« الهجوم السامط الناعم الهادى ، الخبيث ... »
« كسير الافعى »
« وهذا العداء لا يرى ، ولكن يُشعر به خصوصاً »
« من كان مثلك ومثلى ، فهو يدل تماماً وبوضوح على »
« البغضاء الكامنة بين الطبقات .. قولى لى .. لماذا اختاروا »

« سنية بدلى؟ وبماذا فضلوها على؟؟ لا غرور فى ذلك حين »
« اكتب اليك انت .. ولكن يجب أن نفهم الموقف ، »
« لنفهم عقلية الأوساط التى سنعمل معها . . »
« انهم فضلوها يا عزيزتى ، لأنهم يظنون أنها من »
« طبقة أفضل من طبقتنا . . طبقة لها الحول والطول »
« والأمر النافذ، ويجب أن يشب أبنائها بالحق أو بالباطل »
« ليكون لهم الحول والطول والأمر النافذ أيضا .. أما »
« نحن الفقراء المساكين ، فيجب أن نحفظ بمستوانا ، »
« فاذا رفعنا رؤوسنا خفضوها ، وكلما تقدمنا بجهودنا »
« أخرونا . »

« عزيزتى

« قد نذبح وتسلخ جلودنا فى مجزرة هذا العصر »
« المتقلب غير الثابت على مبدأ أو فكرة ، ولكن لن »
« نكون معصوبى الأعين كالبهائم .. بل نسمع ونرى ، »
« وفى هذا تسلية وعزاء . »

وألحقت حواء بأحدى المدارس تعلم الرياضة فاقتصدت
في الاختلاط بزميلاتها المدرسات .. وتكوّنت لها حيا لهن
شخصية فيها تعال ، ولكن ليس فيها حماقة .. فكان
يحترمنها ولا يكرهنها .. بل كانت الحكم إذا اختلفن
جميعا ، ومرجع الراى منهن أفرادا . فاذا ما عادت الى
البيت ، أنست بجدتها ، وبأدلت الحاج سذاجة بسذاجة .
ولم تكن تنعى عليهما معتقداتهما فى الجنة والشياطين .
وترى أن لا لوم عليهما وأمثالهما فى ذلك . فهم تركوا للجهل
فعلمهم الجهل علمه ، يصعدرون عنه ويرجعون اليه . فلماذا
تحاول أن تزعزع هذا الايمان ، ولن تستطيع أن تحل محله
منها ايمانا آخر ، وما أشقى من يعيش مزعزع الايمان .
وتترك حواء جدتها الى البيانو ، وقد دفعت أول
أقساطه من أول مرتب لها . وكانت للموسيقى عندها لذة
كبيرة ، تركيها الرغبة ويكبتها الفقر ، فأقبلت عليها بلهفة
الصادى وهمة المفتون .. وصارت هى السلوى .

على أن همه حواء ما لبثت أن ثارت على هذا الركود،
وطموحها لم يرض عن تماثل الحياة بين البيت والمدرسة،
فانضمت إلى إحدى الجماعات النسائية، وراحت تعمل
بنفس تريد العمل . ولا يزيد لها الزمن الامضيًا . وكان لها
الفضل الاوفى في أن تنشئ الجماعة مشغلا لتعليم اليتامى،
وباتت حواء شخصية جريئة حاسمة، لها مكانتها في أرق
الأوساط النسائية .

وأقام المشغل مرة حفلة كبرى، دعا اليها الكثيرين
والكثيرات من أهل العلم وأهل المال، ونيط بحواء أن
تقول « كلمة الادارة » فقامت وسط الجمع الحاشد
رابطة الجأش، طلقة اللسان . فتكلمت عن المشغل
وجهوده التي مضت، والجهود التي يتحفر لها، والاعراض
التي حققها، والاعراض التي سوف تُحقق .

وتطرق بها القول فأهابت بأن قد آن الأوان
لتحديد الغرض من التعليم في هذا البلد ! تحديد المهمة

الجديدة التى من أجلها تساق البنات والبنون إلى المدارس على اختلاف أنواعها . وتساءلت فى تهكم مرّ عما إذا كان أولياء الأمر والمفكرون والممولون قد اكتفوا وأُثلجت صدورهم بأن تكبد فلذات القلوب وتجد ، سنوات اثرها سنوات ، وينالون الشهادة بعد الأخرى . . لا لغرض إطلاقا سوى الالتحاق بأحدى وظائف الحكومة ؟ حتى إذا ما قفل هذا الباب الأوحد فى وجه أحدهم ارتد عاطلا ، واصبح عالة على أهله ، وعبء ثقيلا على نفسه وعلى المجتمع .

والبنات ! يتعلمن علما نظريا محضاً . . يؤدى بالقليل منهن إلى الحكومة أيضاً . . وترجع الغالبية العظمى منهن إلى بيوتهن ، فاذا بهن غريبات عن تلك البيوت . . غريبات حتى عن أداء أشد الحاجات مساسا بالحياة المنزلية .

والزمن ! يتطلب للنشىء علما عملياً لا نظريا . . علما يكون الرجل الحق والمرأة الحقّة . . الرجل الطامح

المكافح . . الجدير بالحياة . . القادر على استنباط طرق
العيش . . والمرأة المدربة فعلا على تدير المنزل . . يلوذ
الرجل به فيجد الراحة إن كان متعبا ، والرأى إذا كان
حائراً ، ورضى النفس إذا كان فى نفسه تبرم أو كلال .
وجعلت حواء تتوسع فى فكرتها هذه ، وتضرب
الأمثال ، وتقيم الموازنة بين أنماط التعليم فى مصر وفى
أوروبا بلباقة أسرت الأسماع ، واستثارت الاهتمام ،
حتى دوى التصفيق فى النهاية دويًا يُصم الآذان ،
واحدثت عبارات الاستحسان لفظاً طويلاً بين الحاضرين
واحتاط الكثيرون بحواء يهنتونها ويبدون لها السرور
والاعجاب .

وعند الانصراف دعته فريده هانم خرم اللواء نظيم
باشا لتركب معها سيارتها ، فأجابت الدعوة ، وسر الباشا
وازداد وجهه المنتفخ المتوهج توهجاً وانتفاخاً . وهرول
إلى السيارة بجسمائه الضخم ، وخطواته القصيرة ، وفتح



وعند الانصراف دعته فريدة هاتم الى ان تتركب معها السيارة

الباب وانحنى على قدر ما سمح له كرشه . ثم جلس قبالة السيدتين ، وجعل يرد التحيات التي كانت تلقى على حواء بأبهة عسكرية كأنما هو المقصود بالذات .

وجعل اثناء الطريق يُرى حواء مصداق قولها في أولئك الشباب الجالسين على المقاهى كالخشب المسندة لأحاديث لهم إلا الكلام التافه أو النكات الفاحشة ولا سرور إلا أن ينتصر أحدهم على الآخر في لعبة الرد . ويبدى أسفه لتلك القوة المعطلة في زمن يتطلب فيه الوطن أكبركم من القوى .

ومن ثم توثقت عرى الصداقة بين حواء وفريدة هانم فاختارتهما لابنتها الصغيرة تشرف على تعليمها ، وتعلمها البيانو .

ومضت أشهر...

الفصل الرابع

الوقت بعد الظهر ، وقد انتهت عملية تناول الغذاء
ونجية في المطبخ ، وهى على خير ماء الحنفية . ورنين
الاطباق والملاعق تُعول عويلا تقول فيه

أنا أحبـك أنا بس الحيا مطلوب
والساعة فى بعدك سنة والقلب منى يدوب

فلما اشتد بها الوجد ، ورأت أن لا مندوحة من أن
ترفع عقيرتها ، أحدثت فى أدوات الطبخ حركات
هوجاء ، ليُخرج « النحاس » أصواتاً تتناسب مع
« طبقة » صوتها من الوجهة الموسيقية ، وتقنع ربّات
البيت بهمتها من الوجهة العملية . . بعد ذلك ، وقفت فى

الصالة تدعى بصوت جهير أنها ذاهبة تستعجل كى
ثياب سيدتها الصغرى لأن المكوجى كسول دلت
التجارب على أنه لا ينجز عملا الا تحت ضغط الاحساح
وكثرة التردد عليه . ولم تنتظر تنفذ لهذا الادعاء ، بل
نزلت السلم جريا ونهبت الطريق نهبا ، حتى ليحسبها
الرأى سوف تنقض على العامل الكسول فتلهبه نشاطا ،
ولكن الطريق أدى بها الى شفيق ابن الجزار .

لم تمن حواء ولا الجدة بالرد على الخادمة . وكانت
كل منهما فى غرفها . . . هذه مستلقية على السرير وقد
انتهى عملها اليومى من المدرسة ، وتلك على الكنبه تعمل
الابرة فى ثياب أمامها ورن صوت الخادمة فى آذانها
دون أن يحدث معنى خاصا فقد كانتا ساهمتين لاهذه
نائمة ولا تلك تخط .

قال وجدان الجدة « لست ادرى يا ابنتى ماذا
تمنين ؟ . . . وعشا تخفين عنى غمتك بابتساماتك وكلماتك

فهي ابتسامات خالية من ذلك البريق الذي ينعكس على عيني... وكلمات ليست فيها الحرارة التي اتخذ منها النشاط لشيخوختي... أتكونين مريضة؟»

فأجابها وجدان حواء «كلا!.. لست مريضة... بل نعم، قدأكون.. لست أدري.. إني حائرة.. وأشعر بأنني لست ملك نفسي.. لا أعلم لماذا يفرح قلبي، ولماذا يحزن، ومم يفرق تفكيري.. وبم يطمئن؟..»

ولم يستطع وجدان الجدة تفهم هذه الشكاية المبهمة فعمدت إلى الابرّة والثياب وعالجت حواء النوم.. ومكّنت رأسها من الوسادة، وكان يلذ لها أن تنام وقت الظهيرة كلما سنحت الفرصة، وهي اليوم أشد ما تكون حاجة إلى الراحة.. فقد لزمها الليالي الماضية نوم غير مريح تشرف فيه على مروج لا عهد لها بها فتبهرها وما تكاد تطمئن إليها حتى تهب العواصف، وتنقلب المروج أغواراً وانجاداً وعرة مر بدّة الجو تتجاوب فيه همهمة بالغة الرهبة.

وهي تسير في طرق تتعرج أمامها كالأفاعي ، وتقلق
تحت خطواتها حتى لينخلع قلبها ، فتستيقظ ملؤها الفزع
وينتابها أرق لا تستطيع فيه التفكير بجلاء .

وها هي الآن لم تتم . والهواجس تصدّع رأسها . .
فقالت وقد بلغ الملل أشده « أعصابي متعبة . أنا
انهكت أعصابي بالعمل ، وها هي النتيجة . يجب أن أضع
حداً لذلك . . يجب أن أضع حدّاً لذلك . . أفلا أقل من أن
أنعم بالنوم ؟ ! أي كارثة تكون لو استبدت الأرق ، وتماذت
بي الأحلام المزعجة ؟ . . لن أذهب الى بيت الباشا . . »
وكان قوة خفية تحدتها في عزمها هذا فأعادته في ضجر
واصرار . « نعم لن أذهب ! ! » وانساب تفكيرها فجأة
في شأن مالا تزال مدينة به من ثمن المنزل . وكرهت ذلك
فطردت الخاطر عنها .

ثم سهمت طويلاً ، فلما فطنت لنفسها تراءى لها
أن في عقلها تياراً عميقاً مبهمًا وأرادت أن تغوص اليه ،

فمنعها كلالها عنه بيد أنها أيقنت أن هذا التيار أراح قلبها في فترة سهومها . ثم باغتتها حوار موهوم بينها وبين أعضاء المشغل في مقترحات لها وعبثا حاولت أن توقف ذلك الحوار فراح يتردد في رأسها رغم ارادتها حتى كان منه ومن طول التصاق مؤخر رأسها بالوسادة أن أصابها دوار شديد . فاعتدلت بحركة عنيفة فنامت على جنبها وهي تقول . . . « الجمعية . . . والمشغل . . . وذلك الهراء المضحى الذى فيه أفنى وقتى . بل شبابى . أجل شبابى . لماذا لا أكون كباقي زميلاتى فرحة طروبة آخذ الحياة على علاتها ؟ . المثل الأعلى ! . . العمل من أجل العمل ! . . العمل للمجموع ! . . سخف . . نعم . لن أذهب الى بيت الباشا . . » واشتد بها الدوار ، وتخاذل جسدها ، وضاعف ضيقها الحر والعرق

قال وجدان الجدة بعد حين « هل نمت يا ابنتى ؟ »
قال وجدان حواء « أدع لى يا جدتى ! »

قرفعت العجوز عينين متوسلتين الى السماء ثم عمدت
الى الابرة والثياب .

واستيقظت حواء بعد حين على صوت الخادمة وهي
تصيح بأن الرجل الكسول لم ينته بعد من كي فستان
سيدتها . فنادت حواء وأمرتها بأن تعد الحمام فأسرعت الى
تلبية الطلب بهمة دلت عليها قعقة قبقابها ذهابا وجيئة .
وأفاد الماء البارد حواء وأشعرها النشاط .

وكانت نجية قد أصلحت من غرفة سيدتها وفتحت
النافذة فامتدت الشمس على البساط ، وانعكس ضوءها على
المرايا فأفاض على الغرفة البهاء . وحواء قد عنيت منذ
توظيفها بان تكون غرفتها أنيقة مستكاملة الاثاث . ووقفت
حواء وسط شعاع الشمس وغطت . لاعن كسل بل لتفسح
لقلبها وكان يتمدد في صدرها بشعور أشبه بالفرح الشديد
وهو شعور جعل يحتلها من حين الى حين في الأيام الأخيرة
ولم تكن تعرف عن يقين مصدره وكما تقصته ترامي وغمض

عليها . وفي هذه اللحظة دخلت نجية فقالت :

— ستي الكبيره بتقول لحضرتك تشربي القهوة هنا
والا عندها ؟

وترددت حواء ، وقالت وهي تستلقي على الشيزلنج
— هنا .. هاتيها هنا ... أحسن

وكانت « أحسن » هذه لنفسها أكثر منها للخادمة
اذ كانت حواء تفضل الوحدة والانفراد وان لم يكن لديها
سبب خاص . وفي آخر رشفة من القهوة قالت لنفسها
فجأة.. « ورمزى ؟ ! . انه شديد الحياء ! وهل يكون
خجولا في عمله وفي حياته العامة على نحو ما يبدو أمامي ؟
لخير له أن يكون أكثر حياة وجرأة وصراحة ! ! »
ووضعت الفنجال على عتبة النافذة ثم قالت « ومع ذلك
فما شأني به . ليكون كيفما شاء » وبعد فترة قامت بنشاط
على عزم أن تستمد للخروج . وما استقر بها مقعد الزينة
حتى فتر نشاطها وقالت « الأجدر أن لا أذهب الى بيت

الباشا وأن أستريح » وكانت في ذهنها فكرة أخرى تسير مع نجواها هذه تماماً، وهي أن تُعد محاضرة عنوانها « نطلب السفور لشباننا »

وفي هذه اللحظة لمحت صورتها في المرآة، فامعنت فيها النظر. فتعطل تفكيرها اطلاقاً، ثم انتهت فاذا بها تنظر إلى المرآة وجلة ضارعة. ذلك لأنها ذكرت - على حين فجأة - أنها في الثانية والثلاثين من عمرها. وخيل اليها أنها لم تنظر إلى المرآة من قبل، بل كانت ترجل شعرها أو تصلح من وجهها بكيفية آلية أو غريزية وهي تفكر في أشياء أخرى.. الجمعية.. المشغل.. المدرسة.. الموسيقى.. وما إلى ذلك.

ولكنها الآن ترى...

ترى أن عينيها قد غلبهما جد الرجولة على فتور الأنوثة. ووجهها وإن كان ممتلئاً إلا أنه كامد البشرة. شاحب وقوس شفيتها منحني إلى الأسفل أكثر مما يجب.

عبوس يزيد منظرها عمرًا . وشعرها لا يريق له ولا هو
مرتب على نمط خاص . وسهمت حواء إلى المرأة طويلا
فأحست بالخجل ، والحسرة . . . والجرأة ! ثم ترددت ،
ثم فتحت أدراج التواليت بحركات عصبية ، وشرعت
تعنى بنفسها للمرة الأولى . .

وكانت أثناء ذلك تحاول أن تقتنع بأنها إنما تفعل ذلك
من أجل نفسها ، كأية شابة في سنها ، بل سوف لا تهمل
زينتها بعد اليوم . وسوف تعتذر لفريدة هانم عن متابعة
تعليم ابنتها . وسوف تشارك زميلاتهن ضحكهن ومرحهن
تثقب الشرقة وتطير إلى الحياة . فالوقت لم يفت ،
وهي ما زالت في عنفوان الشباب .

وسرها ما بدى على وجهها من نضارة ، ولو لم تبالغ
في تزيينه . ولكن الساعة دقت في الصلاة النصف بعد
الرابعة ، فأصاب تلك الدقة مجمع الأعصاب من حواء
وأحست بيد تمسك قلبها حتى صعب التنفس عليها فراحت

تعض شفتيها تباعا . ثم هزت كتفيها وقالت « قلت لن أذهب بمعنى لن أذهب ، » ! واعتزمت أن تزور صديقة لها في شبرا . وعند ما وقفت أمام المرأة من خزانة الملابس ، أعجبها قوامها المديد وقد أظهره الثوب الذي انتقته في أحسن ما يكون .

وهمت بأن تبدى زينتها على جدتها ، فأدركها خجل وامتنعاض ، فعدلت عن ذلك إلى تنفيذ ما عزمته عليه .. وأوصلها الترام إلى « العتبة الخضراء » فنزلت ، وأيقنت عند سماع صخب الباعة أنها كانت ذاهلة طول الطريق ... وهنا شاعت في فؤادها غمة طاغية . ولبثت مكانها برهة خيل إليها أنها من الطول بحيث لفتت الانظار إليها . فارتبكت ، وأسرعت الى الترام فعادت أدراجها ... إلى بيت الباشا .

الفصل الحجامس

ومضت أساييع تختلف حواء أثناءها مراراً عن الجمعية وعن المشغل طلباً للراحة — ولكنها لم تتخلف عن «الدرس» مرة واحدة . وكانت تغرى نفسها بأن هذا الدرس يدر عليها مالا اضافيا تحتاجه في الضائقة النسبية التي أحدثتها الصفقة الأخيرة من شراء المنزل . وكان هذا المنطق يغضبها « لأجل المال وحده أذهب ؟ . وهل سوف أفنى العمر في جمع المال وتسديد الأقساط ؟ إنها لحقارة . . . وعيشة تافهة ! ! » وتثور كرامتها « إذاً لماذا اذهب وأنا أشد ما شعرت به في حياتي تعباً واهتياج أعصاب ؟ ! » وما من جواب صريح . بل أنها كانت تخشى أن تصارح نفسها . . . وتذهب إلى بيت الباشا وبيت الباشا لا يبعد كثيراً عن بيت حواء — جغرافياً — أما فيما عدا ذلك فالسما والأرض والشرق

والغرب . . حديقة واسعة منسقة أجمل تنسيق . وممر من
زلط ذى ألوان تتكون منه رسوم غاية فى الابداع . ثم
سلم وشرفة ، كلاهما رطب وكلاهما من رخام . وفى الشرفة
بابان من حديد أسود وزجاج اخضر لغرفتى استقبال
تتنافسان ابهة وبذخا . وقد استعانت احدهما فى هذه
المنافسة بمعزف فخم صفت عليه التحف والتماثيل .
هنا تجيىء حواء ، والى هذا البيانو تجلس تراجع
للصغيرة دروسها ثم تعامها العزف هنا تقابل
رمزى ، قبل الدرس أو بعده ، فتتحدث اليه ، وتجيبيه الى
ما يطلب عزفه .

ورمضى ، ابن الباشا ، فتى تخرج من مدرسة
الزراعة العليا منذ عامين ، ويشغل مركزاً فنياً فى الوزارة .
وهو الآن فى الثالثة والعشرين من عمره . رشيق وفى
تقاسيم وجهه أنوثة تظهره أصغر منه سناً حتى ليحسبه
الرأى طالباً لم يساهم فى الحياة بعد . وهو من جاء والديه

وثروتهما غنى عن أى طموح . . طريق الحياة منبسط
أمامه ممهد ، مشرق مديد ومع ذلك فما هو ترق بشبابه
ولا صلف بما أوتى . بل رزين دمث وفي نظرتة خجل وقد
نشأ وله صوت والده الغليظ الواضح يجذب به اليه المستمع .
وان لم يتحدث بجديد .

ولم يعتمد رمزى أن يشقف نفسه ثقافة خاصة وإن
كان يشتري الكتب غثها وسمينها على السواء ، إذا تساوت
فى أناقة الشكل وجمال الطبع . فكتبته اذا عامرة باهرة
وإنه ليمضى الساعات فى ترتيبها وإعادة ترتيبها . ويدخله
من عرفان أسماء المؤلفين شعور بأنه يتمشى مع الحركة
الأدبية . بيد أنه يقرأ أهم الصحف اليومية ، وكافة المجلات
الأسبوعية ، والأخيرة عنده مجموعات ينفق على تجليدها
بسخاء .

من ثم لم يخل من سفسطة الطبقة التى هو منها ،
فهو يجلس فى غرفة الاستقبال الفخمة من منزله الفخم ،

ويتكلم برحاء عن فقر الفلاحين ، ويظهر علمه بجهلهم ،
وحسن نيته حيال سوء حالهم . . ويأسف لذكر وأنثى من
بنى آدم ، وذكر وأنثى من البهائم يعملان النهار فى حقل
واحد ، ويبيتان الليل تحت سقف واحد ، ثم يعتذر بوالده
عن أى اصلاح فى ضيعتهم . . فاذا بحواء مشفقة عليه
لا على الفلاحين .

وقد عود رمزى أهله منذ صغره أن يقنع بالدار
والحديقة . وبالسینما أو المسرح أحياناً . فهو ماض على
هذه السنّة . ومنذ جاءت حواء تعلم أخته الصغرى وجد
تسلية فى أن يتحدث إليها دقائق قبل الدرس أو بعده .
وكانت حواء — بادیء الأمر — تشفق على هذا
الشاب من تفاهة تفكيره . ولا ترتاح إلى مغالاته فى
العناية بمظهره . وكانت تسائل نفسها « أى عمل جدى
يمكن أن تضطلع به هذه الدمية ؟ » وتعجب من أخلاذه
إلى البيت ، ومن تماديه فى الركود ، بينما هى مثقلة

بالواجبات لا تكاد ساعات النهار تكفي جهودها . على
أنها لم تلبث أن ألقت شخصية رمزي على علاقتها ،
وأخذت تتلمس له المآذير عن صبيانته بعدم حنكته ،
وعن مظهره بصغر سنه وما تبيحه له ثروته « إن الرأي
ثمرة التجربة ، وهو لم يعرك الحياة بعد . أو لم يكن طالباً
منذ عامين ؟ والعمل وليد الحاجة . وهو في غير حاجة . فلم
العمل ، أنما نحن وأمثالنا المرغمون على الكد والكفاح
لنكسب مادياً أو أدبياً . تلك هي الحقيقة . . »

واعتادت حواء الجلوس إلى رمزي والتحدث إليه .
ثم تطورت العادة إلى رغبة ، والرغبة إلى احساس بنعيم
وحواء تحاول أن لا تعترف لنفسها بهذا النعيم . . ومن
ثم كانت حيرتها بآدى الأمر . . لا تعرف لماذا يفرح
فؤادها ولم يحزن . ومم يفرق تفكيرها ، وبم يطمئن ، إلى
أن صرّحت الحرب بين عقلها - وقد حشد الدين والأيمان
والعرف والخرافات - وبين قلبها وليس له إلا الشباب

المستعيت . وكانت الحرب سجّالا ، فهي حيالها فزعة
أبدا . . .

الى أن جاء يوم . . .

وذهبت حواء إلى بيت الباشا . فلم يستقبلها رمزي . .
وابتدأت الدرس وانتهت منه . . ولم يحجى . . . وكان عليها
أن تنصرف . . ولكن كيف ؟ وهل يمكن أن تنصرف
دون أن تراه ! . هنا نزلت عندها بالدين والايمان والعرف
والخرافات شر هزيمة أمام طغيان العاطفة . واستحالت
حواء في مكانها تمثالا صليداً ، واستحالت نفسها هوة لا
قرار لها . ولبثت هكذا حيناً . ثم ترددت في الهوة أصداء
عذبة ، فانتعش التمثال فجأة كأن معجزة أودعت فيه
الحياة .

— مش دا أخوك ؟

قالتا بلهفة ، وكان رمزي في الخارج ينادى بعض
الخدم .

فقلت زيزى بسداجة الطفولة :

— أيوه .. هو مع بابا علشان العزبة .

ولو أن زيزى كانت أكبر سنا أو أدق ملاحظة
لدق المركز وتبينت حواء موقفها فآترنت جهدها وعدلت
عن أسئلة شتى تقافزت الى ذهنها . وبعد فترة قالت
الصغيرة وعيناها تلمعان .

— ياريت حضرتك تجي معانا العزبة السنه دي
قالت حواء وقد جلست على مقعد عند نافذة تطل
على الحديقة ، رجاء أن يعرض رمزي فيراها . ولفت
الصغيرة بذراعتها

— هي عزبتكم جميلة ؟

— جدا .. جدا .. فيها غيطان .. و .. ساقية
و .. وفلاحين ..

— وأخوك يكون معاكم ؟

— أبوه .. ويتركب الحصان .. وياخدني قدامه كان

— انت تحبى أخوك كثير؟

— خالص خالص .. قد ...

وارتج على الصغيرة ، فضمتها حواء وقبلتها . وسرت
زيرى فابتسم وجهها وقالت وهى تحماق بعينين مشرقتين
فى عيني معلمتها :

— وحضرتك مش بتحببته كمان؟

فانتفضت حواء لهذا السؤال ، وضغطت ذراعها —
بحركة عصبية — على خصر الصغيرة . والتفتت خلفها
خيفة أن يكون أحد سمع حوارهما ، أو سمع هذا السؤال
على الأقل .. وهمت بأن تقوم . ولسكن نبض قلبها
وتخاذل ركبتيها حالا دون ذلك .. فقالت بعد برهة وهى
تتمر يدها على شعر الصغيرة وتبتسم

— روحى بقى استريحى علشان تذاكرى درسك

الجديد ..

وانصرفت حواء ...

وكانت في طريقها لا تحس الأرض التي تحت قدميها، لأن فكرة هالتها فعملت مشاعرها « ماذا حدى بزيرى أن تسأل هذا السؤال ؟ أترأه جاء عفواً ، أم موعز إليها به ؟ أتكون والدتها وقد لحظت تكرار لقاءها لرمزى .. أم يكون رمزى نفسه ؟ . وإذا كان ذلك ، فهل بدا منها ما رآب أحدهما فأجرى هذا السؤال على لسان الصغيرة لاستقصاء الأمر ، أو للتغنيف ، أو على الأقل لأيقافها عند حدها بطريقة غير مباشرة ؟ أم أن رمزى .. »

ولم تستطع حواء — أو أنها لم تشأ — أن تحدّث بالضبط ذلك الهاجس الأخير . وأصابها دوار شديد . وودت لو أن تسعفها عربة تقلّها إلى منزلها وفيما هي كذلك إذ بصوت يقول :

— بنوسوار ..

فثابت إلى حدها ، تكاد عيناها . تجحظان ..

تلهبان . . . تعشيان . . . حين وقعتا على وجه رمزي .
وصارت كل جراحة منها تنبض بالطرب . وروحها
تضرب جدران قلبها بأجنحة قوية تود الانطلاق لتقمص
هذه الفرحة . . . فرحتها الأولى في اثنتين وثلاثين سنة
قضتها بلا فرحة . . . ولم تدر بماذا أجابت وهل صاغت
وهل شد على يدها أو شدت على يده ؟ وكيف كان
مسها ، وكيف كانت حرارتها ؟
ولم تحر جوابا .

وودت لو أن تعبر له عن سرورها المطلق بهذه
المصادفة ، حتى ولو بالمبارات التي تجري بها العادة في مثل
هذا الظرف ، ولكنها أمسكت حذار أن تكون فيها
تلميح لا يسره . ثم أنت جوانمحا بالرغبة في أن يكون
هذا التعبير من ناحيته . . . على أنها اكتفت بأن قالت ،
وهي تنظر إليه بطرف عينها لتخفي عنه وجهها بقدر
الامكان :

— كنت فين النهاردا ؟

وفي هذه اللحظة تبينت على وجه الفتى ظل كآبة ،
فالتفتت إليه وقالت .

— مالك ؟ !

وسارا جنباً إلى جنب ، وكانت أطول منه بقليل ،
وأنشأ رمزي ينهى إليها ما كان من أمر والده مع نفر من
المزارعين جاءوه يشكون الأزمة وقلة المحاصيل وهبوط
الأسعار ، ويلتمسون منه تخفيض إيجار الأرض إلى حد
يتناسب وهذه الحال الجائرة التي لا تكاد تُدر عليهم
القوت . : والباشا لا يلين . . فلما أراد الفتى أن يتوسط
في الأمر ، انتهره ، ورمى الفلاحين بأنهم أخبت من
الذئاب ، وأمكر من الثعالب ، وأن الفقر وسوء الحال
وأزمة أشد من هذه الأزمة ، لهي أنجع علاج لترويض
نفوسهم الشريرة . . وأنه يجب أن لا يرثي لحالهم فذلك
محض صيانة . . وأن يكون من الأعيهم على حذر .

فأثر الفتى أن ينصرف .

وكانت حواء تشترك في الحديث بأقصر العبارات
وعقلها في تفكير آخر . . ماذا عساها تصنع حين يضلان
البيت . . وسيصلانه بعد دقائق ؟ أترك الفرصة الذهبية
تفلت بهذه السرعة ؟ كلا . . كلا . . سوف تدعوه إلى
دارها ، وتلح إذا اقتضى الحال .
— وتصورى أن فيه قري ، لو جمعت كل
ما عند أهلها تجديه لا يتجاوز جنيه واحد
— هذا يؤس .

ومرت في خاطرها مقارنة بين البيتين ، وبين الأهلين
ولأول مرة في حياتها تبينت أن جدتها يجب أن تكون
أحسن مما هي عليه مظهراً . . والحاج أمام . . أواه لو
دخلوا وكان بقميصه وسرواله يتوضأ في صحن الدار
— تجديش في الدنيا أعجب من كون الغلابة دول
ما يناموش في أوده مبنية بالطوب أو الدبش إلا إذا ماتوا

— ملاحظة مذهشة —

وكادت تعدل عما اعتزمت ، ولكن قلبها تشبث
بالفرصة السانحة .. سوف تجاس إليه على انفراد ..
يتحدثان بكامل الحرية .. أترى غرفة الاستقبال نظيفة
مرتبة .. أنها لم تدخلها منذ أيام . ونجية لا يُعتمد عليها ..
على كل حال سوف يجلسان فيها . وتعزف له على البيانو
— ... وكل ما طلبته أن ينقص لهم الأيجار
عشرين في المية .

— نسبة معقولة .

بهذا تستطيع أن تقترب من قلبه فتسبره . أى
فرحة جنونية سوف تعمريها إذا ما وجدت لها فيه
مكانا ! وخطر لها كذلك أن هذا اللقاء ليس وليد
المصادفة . بل تدبير من الفتى تعمده . وأنه كان يرقب
خروجها . وربما كان يتمنى هذا الظرف من زمن
طويل .. وأنه ينتظر منها ابداء سبب لأطالة الوقت فيجيبه

على الفور . بل ربما اقترح من ناحيته سببا . . على أى حال ،
إذا جدَّ في الامر خيار فسوف تفضِّل الذهاب إلى المنزل
فقويت ثقتها في العشور على ضالتها . وأدركها ذلك المخاطر
مثل مس الكهرباء ، ثم مثل نشوة الخمر حتى لقد بذلت
جهداً في أن تقول

— بديع من غير شك ، ولكن الباشا أدرى
ووصلا المنزل . وقبل رمزى دعوتها

الفصل السادس

كان أول ما أراح بال حواء ، أن رأت غرفة الحاج مقفلة فأسرعت تنهب السلم الى جدتها ، فاذا إمام عندها يقرأ عليها من كتاب « قصص الأنبياء » وقد وصل من معجزات موسى عليه السلام ، أنه وهو في السابعة من عمره كان يوماً جالسا مع فرعون على سرير الملك ، وأن فرعون نهزه لسبب ما فنزل مغضبا وضرب برجله قوائم السرير فحطم منها اثنتين ، وسقط فرعون وتهشم أنفه... وكانت نجية تسمع ، فسرهما ما تخيلته من منظر الملك العظيم مكووماً على الأرض والدم يسيل من أنفه ومضت تضحك وتصخب . . وداهمت حواء الموقف عند هذا

الحد ، فأشارت الى الجميع بالصمت وأعلنت مقدم ضيفها في كلمتين ، وتركتهم بأفواه فاعرة وعيون محمقة وانطلقت كالسهم الى غرفة الاستقبال فاطمأنت على حالها ، وفتحت بابها المؤدى الى السلم . ودخل رمزي فوقف وسط الحجرة يحيل فيها النظر ، وعلى شفقيه ابتسامة خشيت حواء أن تكون اشفاقاً .

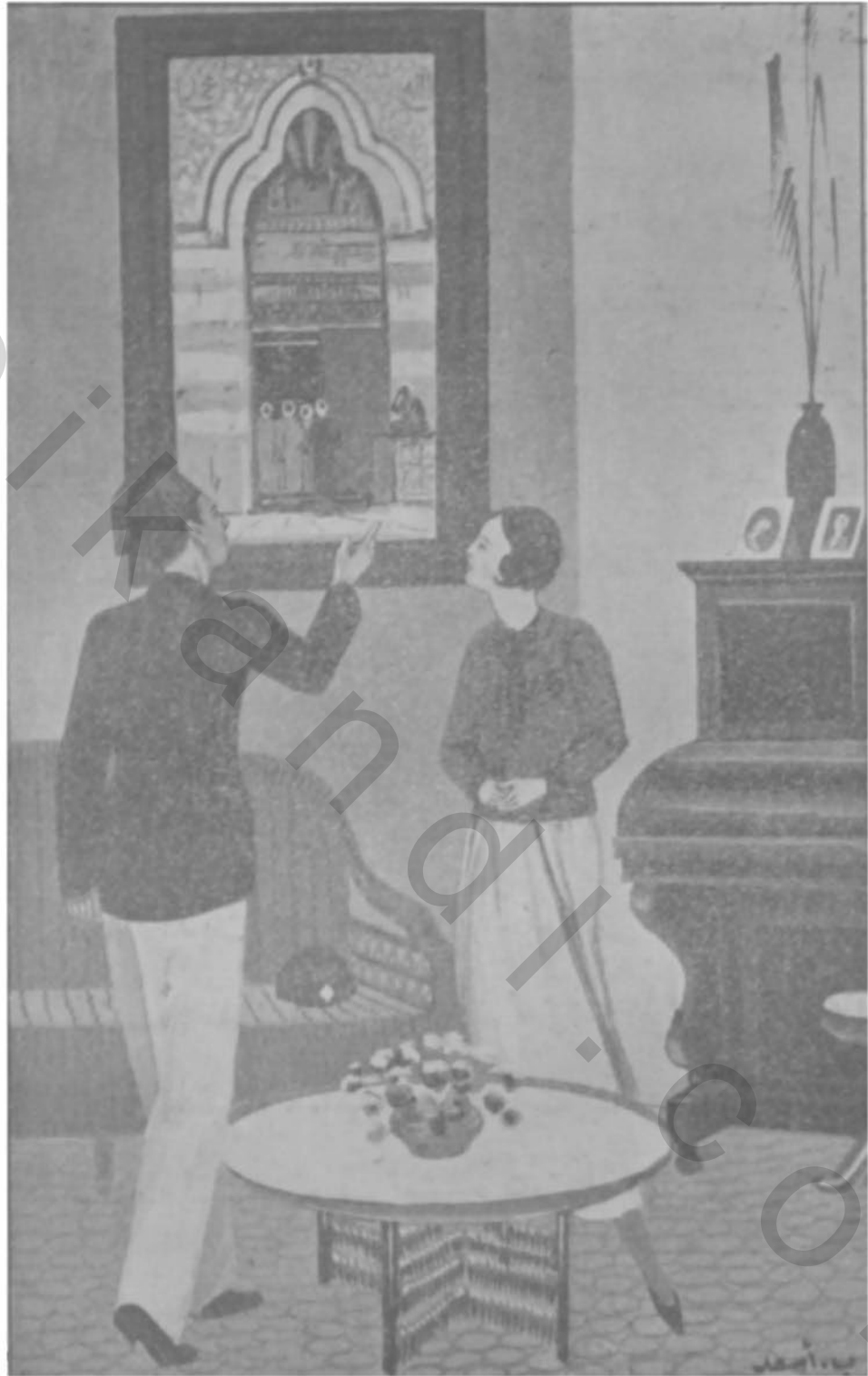
وغرفة الاستقبال بسيطة الأثاث ، لا أكثر من كنبه وثلاثة مقاعد رحبة ذات متكآت ولها وسائد ضخمة مريحة بينها سجادة صغيرة ، وفي الوسط صينية من نحاس أصفر على حامل دقيق الصنعة . . ثم البيانو . وعليه صور فوتوغرافية لبعض الصديقات . وعلى الجدران صور أخرى لحواء مع تلميذاتها . وفوق الكنبه صورة زيتية لمسجد وعلى بابه شيخ جالس يقرأ القرآن . فأقبل رمزي على هذه الصورة ، وثبت فيها نظرة الفاحص ثم امتدح ما فيها من تناسق وصدق في الألوان ،

وبراعة في الضوء والظل . . براءة جاءت حقاً بجلال المسجد وروعته ، ولم يشأ إلا أن يكون الناقد الحريص فأظهر مواطن ركافة في جلسة القارىء ومقدار حيويته . وكان التكلم برزانة استمدها من أنه أغرم بالتصوير وعالجه أيام الدراسة ولكنه اضطر الى تركه تحت ضغط واجباته وتذمر والده .

— لما تخرجت من المدرسة الناظرة أهدتها الى ووجدت حواء صعوبة في اداء ما قالت لشدة خفقان قلبها . وقال رمزي ببساطة :

— لا غرو

وتحول الى الصور الفوتوغرافية ، فأطرى حواء وتلميذاتها . . بكلمات وايماءات من رأسه وابتسامات . وهدأت أعصاب حواء نوعاً ما ، وتماكنت جأشها الى حد . وبدأت تشرح لضيفها المناسبات التي أخذت فيها تلك الصور . فأحداها في حدائق القناطر الخيرية ،



وجعل رمزي يجيل في الصورة نظرة الفاحص

وأخرى في سفح اهرام سقاره ، وثالثة على سلم المتحف
المصرى ، ورابعة

وفجأة تخرجت الكلمات في حلقها وامتقع لونها ،
وأظلم الجو في عينيها . . ذلك لأن صوت الخادمة رنَّ
وقتئذ بالاستفسار عما اذا كانت تشتري الغازوزة بالقرش
الصاغ كله أو بنصفه فقط ! ! وكان رمزى نجيدا في هذه
اللحظة ، فقد أدرك موقف مضيفته فانطلق يتكلم عن
الرحلات وأثرها المباشر في ثقافة النشى ، ثم جلس في احد
المقاعد وجلست قبالة ، وهى تحمد جلوسه لما كانت
تشعر به من تخلخل ركبتها ، وعمدت الى أن تستأنف
معه الحديث عن الفلاحين فتكلم الفتى ولكن الموضوع
نضب فطلب منها بدوره أن تعزف على البيانو ، فقامت
بخفة وابتسام تعامتها ، وحاولت أن تعزف قطعة صنعتها
مقدمة لنشيد سوف تنشده بذات المشغل في حفلة قادمة ،

ولم تكن عزفها لأحد من قبل. وإن كانت تعزبها وتراها
خير ما صنعت . وسرها أن يكون رمزي أول سامع .
وحاولت الاجادة فخذلها احتياج اعصابها ، فجاء التوقيع
اشبه بالعبث حتى اضطرت إلى الاعتذار بأنها لم تنته بعد
من ضبطه .

ودخلت نجية بشديها البارزين ، وجسمها الرجراج
وشعرها المنفوش ، تقدم الغازوزة ، فلم يستطع رمزي الا
أن ابتسم ابتسامة واضحة ، وأسراً إلى حواء استعداداً لأن
يقدم هذه المخلوقة إلى أول معرض تقيمه وزارة الزراعة
فوافقته حواء على أن تلك الخادمة بقرة آدمية حقاً . .
وضحكت لتسره ولتخفي خجلها . وبعد أن انصرفت
الخادمة خشيت حواء أن يفتر الحديث فاندفعت تقول :
— البنت دى فكرتني بالتورالى شايل الأرض
فنظر اليها رمزي باسم مستفسراً فآخذت سيما
الفرح والسذاجة وانتهت اليه أن الحاج امام ألقى عليها

محاضرة بديعة في هذا الشأن خلاصتها أن الأرض في بدء تكوينها كانت معلقة في الفضاء ، فتعبت، وشكت إلى الله . فأرسل لها الله ملاكا دخل من تحت الطبقة السابعة وقبض على طرفيها . وبذلك حملها ولكن لم يجد لرجليه قرارا فأنزل الله له ثورا من الجنة له أربعون ألف قرن وأربعون ألف رجل ومن القرن الى القرن خمسمائة عام . وهذا الثور بدوره لم يجد لرجليه قرارا فجعل الله تحته ياقوتة طولها خمسمائة عام ، ولم تكف الياقوتة فأنزل تحتها صخرة فيها تسعة آلاف ثقب من كل ثقب يتدفق بحر هائل . ولم تجد الصخرة ما ترتكز عليه فأهبط الله حوتا من البحر السابع الذي تحت العرش فأستقر الجميع عليه

فقال رمزي :

— أنا أعرف أن التوراللى شايلى الدنيا زى

أى ثور ثانى له قرنين اثنين وانه

— وانه إذا حرك الأرض من قرن إلى قرن . . .

— يحدث الزلزال

— يحدث الزلزال . تمام . ولكن دى رواية

الحاج إمام

— اوعى تلقى هذه المحاضرة القيمة على تلميذاتك

أوفى المشغل

ولم يخف على حواء ما فى هذه العبارة من

استخفاف . بل كانت قد لحظت ذلك من مط شفتيه

اثناء كلامها ، فعزمت على ان ترفع مستوى هذه الخرافة

بأن تجعلها مقدمة للكلام عن العامة وفلسفتهم ، وطبهم

وآرائهم فى الوجود . . ولكنها عدلت فجأة وقالت دون

ان تخفف من ظاهر مرحها ، وإن كانت احست بخيبة

غير يسيرة . .

— لا . لا . مشغلنا يسير على أحدث نظم التعليم

— فى الحقيقة . . دا مجهود هائل . . ولا ينقصه . . الا . .

— احنا على استعداد لأن نسد كل نقص ..

— عاوز أقول .. يجب على الأغنياء ..

.. آ.آ.

ولم ترد حواء مخافة أن يكون الانتقاد من ناحيتها فيه احراج له . أو مساس بكرامته ، ولم يزد رمزى كذلك وقد شعر بأنه تورط فى هذه الملاحظة ، واتقى كل منهما النظر إلى الآخر .. وعمدت حواء إلى تغيير الموضوع . فارتج على ذهنها ، وساد صمت ثقيل .

ولام رمزى نفسه على أنه قبل تلك الدعوة ، وكان قد أحس منذ حضوره بعدم الارتياح ، وبأنه فى جو لا يستطيع التنفس فيه بحرية . وأيقن أنه تسرع فيما فعل ، وأن مضيفته إنما تهش له بمجاملة لتطفله .. ثم ماذا لو اتصل بوالديه نبأ هذه الزيارة ، قد يسيئون الظن به وبها .. وينشأ مركز غير حميد ، وود لو أن يلفت نظرها إلى وجوب الكتمان . ولكن هذا مستحيل .. أى صغار

منه وهوان لها .. بيد أنها لاشك تدرك دقة موقفها حيال
محيته إلى دارها .. وهذا يكفي .

ولم يفت رمزي خروج حواء - أو محاولتها الخروج
عن شخصيتها الوقورة إلى المرح وشىء من الصبيانية .
فلم يرتح إلى ذلك منها . وإنها في اعتقاده لم تخلق إلا للجد
والقول الرصين . واشفق عليها وهي تتكلم عن الثور
والياقوتة والصخرة والحوت .. ولكن هو الذى ألقاها
إلى ذلك باقتحام دارها على غرة منها .. فهي ترهق نفسها
لتسره بما يحضرها دون تفكير ، بل لعل تفكيرها أبعد ما
يكون عن لسانها الآن .. مشغولا بما يقوله أهلها ،
ويتقوله آخرون عن زيارته

وتغلب أحدهما على الصمت المخيم بملاحظة تافهة .
اعقبها حديث ممزق مضطرب .. يبتدرها بسؤال فتجيبه
بسؤال آخر ، ثم موضوع جديد ، فاذا به كلمات معدودة .
وصمت .. وهكذا .. حتى أدركا معاً أن الخير فى ان

ينتهى الموقف بالانصراف .

فهيبت معه السلم . . وشيعته بنظرها إلى ان خرج
وكانت تظن انها تبسم .
ولكن الدموع كانت تنهمر على خديها . . .

الفصل السابع

وكانت هذه الدموع آخر قطرات كبريائها . ولم تدر كم لبثت تسكبها . ثم قضت ليلة في سقر لم تخف مظاهرها على الجدة ، فقد ادركت - وهي في غرفتها - كثرة حراك حواء في فراشها ، وأنینا وهممة يصدران عنها ، فحسبتها لم تم ، فجاءتها عليها تسليها وتطرد عنها الارق . ولما لم تشعر حواء بوجودها اكتفت بأن وقفت الى جانب السرير ، وكان القمر في عنفوانه ، وغنوه على وجه حواء وبعض جسدها ، فتبينت الجدة ما في تنفس الحفيدة من اضطراب . وما على وجهها من ضجر وتقلص من حين الى حين ، فتمت « بآيات الكرسي » وهي تُريدُها

فى لطف على الجسد الممدد ، حتى خيل اليها أن قد جاءت
الآيات بالسكينة فعادت ادراجها تمشى على حذر . وفى
الصباح أنهت الى حواء ما كان ، فاعتذرت بأن قد يكون
السبب سوء الهضم أو ما اليه ، وطمأنت الجدة
فاطمأنت .

وساورت حواء طول اليوم مناظر الخيبة من زيارة
الامس ، وظلت تحمل على صدرها عبء ما تكاد تطيقه .
وادركها من الذهاب الى بيت الباشا خوف وخجل . .
خوف من أن يكون رمزى أطلع والدته على ما حدث ،
وسوف تلومها الوالدة تصرىحا أو تلميحا ، وقد يحدث
ما هو أسوأ . . . وخجل من رمزى — على فرض أنه
اعتصم بالسكتمان . وفى السكتمان اعتراف بأن الامر
أوقع أو أسخف من أن يذاع — هل يقابلها اليوم أو
أنه يفر من لقاءها ؟ ! واذا قابلها فكيف يكون المشهد؟
وترددت بين أن تذهب وأن لا تذهب . ولكن الحب

كان قد صرّح في فؤادها ، واخضع كل جارحة منها له .
فهي ذاهبة أرادت أم لم ترد .

والواقع أنه حين عاد رمزي الى داره ، لاذ بغرفته
وقد احتله امتعاضٌ من رأى شيئا كريها ، أو من وقف
موقفا لا يرضاه . وخطر له أن يبادر باطلاع والدته على
ما جرى ، ففي هذا برهان على حسن نيته . وتردد . .
ثم رأى أن يترك الامر لظروفه على أن يتحاشى لقاء حواء
إلى حين . ولكنه تبين ما في هذا من معنى القسوة منه .
وادرسته المريعة لتلك المسكينة التي أفنت شبابها كدّاً
وجداً ولم تفز بغير ضروريات الحياة ، وقرر أن لا يشعرها
بأن اطلاعه على حالها المعيشية أثّر البتة في احترامه
لها ، وتقديره اياها . فقابلها هاشاً على عادته ، وإن كان
في عينيه خجل لم يستطع التغلب عليه

وتلاشت مع الايام غمة تلك الزيارة . وعاد شأن
حواء ورمزي الى نصابه . بل ان رمزي شاورها في بعض

شؤونه الخاصة ، ولم يكن فعل ذلك من قبل . فابتهجت
بأن صارت منه موضع السر والشورى ، واعتقدت إيماناً
بأن الفتى يدرج الى حبها حثيثاً ، ولن يطول الامد حتى
يكشفها به .

وفي يوم ، دخلت عليها فريدة هائم مشرقة الوجه ،
يارعة الزينة وقالت :

— كفاية كدا درس النهار دا ..

— ايوه ، كفايه كدا درس النهار دا ..

وكان رمزي دخل أثر والدته وكرر عبارتها مداعباً
ويداه تعملان في ربط رقبتة . فقالت زيزى في دهشة
— ليه ياماما ؟

فقال رمزي يتابع دعابته :

— قولى لها ليه ياماما

أما حواء فمدت إلى القادمين نظرة المستفسر .
وكانت زيزى قامت عن كرسي البيانو ، فجلست عليه الوالدة

— علشان تروحي التياترو

ثم امرتها بأن تذهب فتستعد . فخرجت الصغيرة جريا وتزأط فرحاً . وأتم رمزي دعابته بأن تبعها وهو يضرب لها ركبتيه . وحولت حواء نظرها إلى فريدة هانم ، فأنهت إليها أن الباشا كان احتجز مقصورة لحفلة العصر من اليوم ، وادعت أن النية كانت معقودة على ان تكون حواء معهم . ولكن الباشا جاء منذ حين فاعلن لها عدوله عن الذهاب ، وطلب إليها ان تصحبه لزيارة سيدة يعرفها اسمها « تفيدة هانم » لأنها مريضة وقد استدعت طبيباً ، وليس عندها من يحسن التفاهم معه .
— والحقيقة انا لا استظرف الست دى ابداً ..

وتنبأت حواء بما سيكون ، فقالت ببساطة تخفى ورائها أغراء صديقتها على أداء ذلك العمل الخيرى .

-- لكن ما دام الست تعبانه .. والدكتور ..

— آه لو كنت تعرفها !؟

وأستطردت فريدة هانم ترسم صورة لتفيدة هانم
فهى أرملة أحد الضباط ، طويلة ولها مناكب رجل ،
وتدعى لنفسها حكمة الفلاسفة وذكاء المخترعين مما جعل
زوجها المرحوم يعمل برأيها فى تصرف الجيش ؟! لذلك
ترى من كمال مظهرها أن تكون متجهمه الوجه ، وأن
لا تفتح عينيها أو تحرك فكها حين تنثر الدرر الغرر .
ثم يخونها الادعاء فتشكو نصف دسنة أمراض فى
جسدها شكاية تحار منها نصف دسنة أطباء .. ثم ارتباك
قضائية يسببها لها « البك اخو المرحوم » وتحتاج فى
تفهمها إلى نقابة من المحامين .

ورفعت فريدة هانم يدها إلى ظهر البيانو
فضربت رأس مسخ تقوم على زمبرك ، وأكدت أن
هذا بالضبط ما تفعله تفيدة هانم حين تتكلم .

— انا مش عارفه الباشا معجب بايه فيها ؟ و ليه
شاغل نفسه بها .. يمكن ..

وغمزت بعينها وتضاحكت

ودخل رمزي فنظر إلى والدته نظرة أدركت معناها

وقالت وهي تنظر إلى حواء :

— طبعاً . طبعاً . تروح معاكم . . ! إن كان على

التواليت . . تعالى عندي في الأوده . . وإن كان على

البيت عندي . . أنا أبعث حد من الخدامين يدّيهم خبر

— عال . عال . انحلت المسألة

قال رمزي ذلك وجلس بدوره إلى البيانو يعبت

بمفاتيحه . وتبعته حواء صاحبة البيت إلى الداخل وقلها

من السرور في ألم

وركبت حواء السيارة مع رمزي . وجلست إليه في

المقصورة ، لا شريك لها إلا زيزي فكانت خير وسيط

في تبادل الحديث بينهما ، وإرسال الدعابة من أحدهما

لما كانت تثيره الصغيرة من أسئلة أو تبديه من خوف

أثناء التمثيل . فكانت ليلة عدتها حواء نهاية السعادة
وجماع الحياة .

من هذا وهذا كثر أشراف حواء على مروج
احلامها ، وقد ألفتها ، فهي تمرح فيها ، وتنهل من مائها
الرقراق . ويدركها رمزي عند جدول أو تحت دوحة
اصطفها هنالك ، فيباغتها بقوله :
— أهذا أنت ؟

ولكنها الآن تعرف أنها تجيبه بقولها :

— نعم يا حبيبي . إلى . إلى . . .

وتهوى بين ذراعيه

— أجدني وراءك فنجري . .

ومجريان بين الشجر الميأس والزهر الباسم ، ويقفزان من
جدول إلى جدول ومن قنطرة إلى أخرى حتى يصعدان
فوق ربوة عالية تشرف على المحيط اللانهائي ، فيرتميان
على العشب وهما يلثمان تعباً وجذلاً . ثم يضمها وتهصره ،

ويقبلها وتشفى منه غلة « سالومية » وتستيقظ متخذرة
الأعصاب بنشوة دونها أمتع متاع الدنيا .. وفي اليوم
التالى ، حين تقابل حواء فتى أحلامها لهما ، تدن
جوانحها بالرغبة فى أن تفتح له ذراعيها وتقول « ها أنذا
يا حبيبي . الى . الى . » وأن تروى له ما كان لها معه من
متعة ونعيم .. وتغسك الكلام وكاد يفر من شفيتها
الى أن جاء يوم

الفصل الثامن

نظيم باشا محق في غضبه .
وفريدة هانم محقة في ثورتها .
فهو له وجهة نظره الدقيق ، وحيثياته الوجيهة ...
ووعده سبق منه !!
وهي لها المؤهلات ذاتها بدقتها ووجاهتها .. ووعده
سبق منها !!
ولكن الغلظة كانت في أن كلا منهما كان يعمل
على جهل من الآخر ليحدث في النهاية مفاجأة وسروراً
وكان الباشا واثقاً كل الثقة من أن زوجه ستصنع من
جسمها قوساً ينطبق على كرشه حين تعانقه حمداً له على

ما فعل . وتقول بين قبلاتها « أنت عظيم يا باشا ، واسع
الحيلة ، بعيد النظر » ولولم يبادر ، لبادرت هي ، وهي على
يقين من أنه سوف يضمها إلى صدره ويقول « هكذا .
هكذا . وإلا فلا . لا »

ثم حدثت المفاجأة ، فلم تحدث سرورا ولا قبلات
ولا اطراء . بل أحدثت وقع قطارين تصادما . وبمعجزة
من السماء نزل السائقان ينظر كل منهما إلى الآخر .

وكانا في غرفة النوم . هذا عند الباب وقد انتهى على
الفور من ضرب الأرض بقدمه ضربة اهتزت لها أثباتا
لأنه رب البيت ورجله والمتصرف في شؤونه عامة وفي
شؤون ابنه بصفة خاصة . . والمرأة أيا كان مستواها ،
ومهما كان علمها ناقصة عقلا وحنكة وتجربة . والواجب
عليها شرعا ولياقة أن تنصاع إلى الرجل ، لا أن تجرى في
رعونة وراء عواطفها .

أما فريدة هانم فهزت أكتافها لاهتزاز الأرض .

فقد تغير الزمن ، ودارت الأيام بغير ما يدور في خلد الرجال .. ولم تعد المرأة تلك المخلوقة الخاضعة الخائفة الناصرة زوجها فخطئا ومصيبا .. ألم تحمل المرأة علم الثورة إلى جانب الرجل ؟ .. ألم تعرض النساء صدورهن بشجاعة لحراب الغاصب ؟ .. ألم يحملن شطراً باهظاً من مسؤوليات النهضة ؟ ألم يكن لهن رأى له خطره في المواقف السياسية المختلفة .. ثم هذه هي الجمعية وهذا هو المشغل تسام فريدة هانم في إدارتهما وتسير بهما مع أترابها من نجاح إلى نجاح ؟ فقيم زهو الرجل ، وعتوه ، وتسلمه تسلط الجبار ؟

وساد الصمت . وحاول كل أن تتجانس وقفته مع الموقف فنفخ الباشا أوداجه ، وقطب ما بين حاجبيه ، ومد قامته ، وفتح صدره .. فنجح .. ولجأت فريدة هانم إلى تقليد غضب « البريمادونات » فطت شفيتها ، ونكست رأسها إلى صدرها . ومالت بخصرها إلى النافذة

أكثر مما يجب .. فلم تنجح .. مع أنها كانت أشد
إنفعالا وأصدق غضبا . وكانت مصممة على أن تثور
إلى النهاية . وتمانع الى النهاية على حين كان الباشا مهوشا
أكثر منه غاضبا لذلك اغتبط بنجاحه وخيبتها . وأيقن
أن الأمر سيجرى على إرادته . فتقدم إليها حتى لم يبق
إلا القليل أو دون القليل بينه وبين جسدها المائل ،
وقال فى ملاطفة :

— أنت زعلانة صحيح ؟

— بالطبع

واعتدلت ، فانعدم دون القليل الذى بينهما ،
فأربتها على خدها ، فأشاحت عنه وقال :

— تأكدى إن مافيش نسبة ..

فقاطعته وقد ضربت عتبة النافذة بيدها

— لكن أنت أخرجت مركزى يا باشا

— أنا راح أعمل ..

— مش عاوزة حد يعمل لى حاجة !

— أنا راح أعمل كل شىء يرضيك

ثم أربت ظهرها وقال :

— أنت تفهمى الدنيا زى واحد عجوز فى سنى ؟

هنا توارى الغضب من وجه فريدة هانم ليفسح المجال لخجل الطفولة . وتلاشت فكرة الثورة وعلمها وتعريض الصدور الناهدة للحراب النخ النخ لكى تطمئن النفس الشابة التى لا تفهم الدنيا فهم هذا الزوج المعجوز.. فى هذه الأثناء كانت حواء فرغت من الدرس ، وإنما تطيله لأن رمزى مربها منذهنية وطلب إليها أن تنتظره ريثما ينجز شأنًا لو والده . فان لديه ما يريد أن يخبرها به . فهى إذن مسرورة وتنتظر سروراً . وراحت تعيد على زيزى « فوائد البقرة » وتعدد تلك الفوائد على أصابع الصغيرة دعابة منها .. وإذا فريدة هانم أقبلت فجلست ثم صرفت ابنتها . وأدركت حواء من تهالك صديقتها على المقعد

ومن جد لهجتها حين أمرت زيزى بالانصراف، أن
بصديقتها هما، فابتدرتها قائلة

— ايه المسألة ؟

— أنا في غاية الكرب

— لا . لا ؟ !

— ومش عارفة أودى وشي فين ؟

فحماقت حواء وقالت بدهشة ولهفة :

— عجيبة ! ازاي ؟ !

وخطر لحواء ربما أن يكون الأمر خاصاً بها . وأن
تكون فريدة هانم حضرت لتخبرها بما وعدّها به رمزي
وأن عجلته وتواريه ليسا في شأن لوالده — كما أدعى —
بل فراراً من خطورة الأمر . فدوت في قلبها صدمة هائلة ،
ارتفعت لها يدها اليه على غير إرادة منها . وسهمت في
الوجه المكفهر أمامها ثم قالت :

— ايه ؟ ايه الخبر ؟

— الباشا تصرف تصرف مش كويس أبداً .. من

غير علمى

فلم يفد حواء هذا التصريح كثيراً . وودت لو أن
ترى رمزى فى هذه اللحظة لتعرف فى وجهه ما وراء
الأكمة . وهمّت بأن تتلفت حولها لعله يكون فى زاوية
يتوارى خجلاً .. ثم أحجمت . فتحرّكت رأسها من أثر
التردد حركة عصبية أغضبته . على أنها عملت الابتسام
وقالت :

— أى تصرف ؟!

— أنا أقول لك ، واحكمى بنفسك

وتناوأت مروحة من منضدة أمامها ، وجعلت
تهوى على وجهها طلباً للهدوء . وفى التوّرن جرس التليفون
فى الصالة ، ثم دخل الخادم يطلب سيده للتكلم

— الو

— ...

— أهلا وسهلا .. ازيك

— ...

— الله يبارك فيك ، انما ياخى انت عرفت ..

وعرفت من مين ؟

— ...

— ياسلام ! على كدا البلد كلها عرفت قبل أنا ما

أعرف

— ...

— لكى حق ، شىء ما .. شىء ما يدخلش العقل

انما وحياتك أنت . أنا ما كنت أعرف شىء عن

الخطوبة دى أبداً . أبداً وحياتك . تصدق إن الباشا

جواب لى سيرة الخطوبة دى غير دلوقت . ولو كنت

كلتيني قبل شوية كنت ظنيتك بتعملى كدبة ابريل مقدما

— ...

— رأيى ؟ حسرة على .. أنا بقى لى رأى ؟ ! الباشا

فضل رايح لتفيدة هانم ، جى من عند تفيدة هانم ، وأنا
بسلامة نيتى فاكراه ييساعدها فى قضاياها ومشاكلها .
اتابيهم الاثنين ييطبخوا الطبخة سوا ...

— ...

— رمزى كان يعرفها ؟ لا والنبي أبداً ، ولا عمره
شافها ، ولا أنا حتى ما كنت شفها إلا لما رحت أزور
نيتها تفيدة هانم . وهى عيانة .. ألو .. أنا بزق على
آخر حسى يمكن حتى الجيران سمعتى

— ...

— شافهم فى العتبة ؟ أه . افكرت . صحيح صحيح
الباشا قال لى أنه انتهز إن النهاردا الجمعة واخدر رمزى معاه
وتفيدة هانم أخذت بنتها معاه وراحوا كلهم المحكمة
المختلطة يدفعوا رسوم ما أعرفش ايه ...

— ...

— ما تجبى تباركى له انتى . دقيقة والثانية تجيبك

عندنا . . أورو فوار

وكانت حواء في مكانها تنصت في ذهول من يسمع
الحكم عليه بالأعدام . ثم تعطلت حواسها ، فلم تعد
تسمع إلا طنيناً ولم تعد ترى ما حولها إلا ظلالاً وصارت
في شبه غيبوبة مرت على خاطرها أثناءها مناظر مبهمه .
وليس بين أعمال هر كيوايز ما هو أصعب من جهودها
حين قالت لفريدها نام « مبروك » وعادت فريدها نام
سيرتها من المقعد ومن المروحة ، وشرعت تذكر حواء يوم
المسرح . وباهتمام الباشا بتفيدة هانم ذلك الاهتمام الذي
انتهى بخطوبة ابنها لرمزي في حين أنها كانت خطبت
له ابنة صديقة لها أجل من تلك وأغرق حسباً ونسباً .
ومن ثم كانت معركة غرفة النوم

وقامت فريدها نام إلى التليفون — من تلقاء نفسها
هذه المرة — ، وأعادت القصة بحذاقها مرة أخرى .
وما هي إلا دقائق حتى جاءت المهنئات بالخطوبة وبأطيب

التمنيات ورحن يضحكن ويتماجن . وأغلبهن صديقات
لحواء . حتى أصبح من الصعب عليها أن تنصرف بطريقة
كيّسة . بل لقد طلبن إليها العزف . فأقبلت حواء تقطع
نياط قلبها ونياط البيانو . ولما فرغت بالغن في تهنئتها
بما حباها الله من روح وسحر أداء . ثم استأذنت في
الأنصراف . وعند رأس السلم المطل على الحديقة نادى
فريدة هانم ابنها — وقد لاح — أن يتشبث بالهاربة
فاعترضها وهو يقول

— على فين ؟

قالت حواء بابتسام وإشراق تعملتهما :

— مبروك .. ألف مبروك .. أنا طبعاً كان بودى

أبقى معاكم أطول مدة ممكنة في الفرصة السعيدة دى

ولكن أنت نفسك لاحظت امبارح انى متعبة ومريضة

فاطرق رمزى حياء ثم قال يعتذر عن عدم رجوعه

اليها حسبما وعد .

— كنت مع بابا . . هنا . . في أودة الكاتب
وأشار إلى غرفة صغيرة بجوار باب المنزل . وفي هذه
اللحظة أقبل الباشا من تلك الغرفة ، وقال وهو يصفحها
ويتهايل بشراً :

— هيه . . إيه رأيك ؟

وظل ممسكاً يدها ويشد عليها ، وشرع ينهى إليها
أنه هو والمرحوم ذهني بك كانا صديقين حميمين منذ كانا
ضابطين صغيرين في سواكن . فلما بلغ صديقه السن
القانونية ، استبدل معاشه من جهة وباع ما يمتلكه في
القاهرة من جهة أخرى واشترى عزبة تجاوز
عزبة نظيم باشا . كانت في ذلك الوقت تباع بالمزاد
 العلني . وكان رحمه الله ينتهز مثل هذه الفرص . فلما مات
ومات أكبر أولاده في الرذائل والنوبات . . أشرف أخو
ذهني بك ، على الورثة والتركة ، فأساء التصرف ، واستباح
مال اليتامى . . واشتكت فريدة هانم الأمر إلى الباشا . .

واستنجدت به ، فلما أحسن عم الأولاد بذلك ، أقام
الصعوبات والمراقيل في المحاكم وغيرها . ولكن تنظيم
باشا هزمه على طول الخط . . ولما ذهب أمس الأول فقط
يعان لتفيدة هانم نصرها النهائي ، جاءت فكرة خطوبة
ابنتها الكبرى . . سعاد . . لرمزي . وتم الاتفاق —
على بركة الله

ولم يبق في ذهن حواء من هذه السيرة كلها إلا « على
بركة الله » فرددتها ، وانصرفت على رغم التشبث بها . .

الفصل التاسع

الوقت بعد الظهر . والمنزل الصغير يشمله السكون
المألوف . ليس فيه من صوت غير وقع حذاء الحاج يصعد
السلم ، درجة .. درجة .. بطيئاً .. ثقيلاً .. ثم ما عثم أن
سكت . لأن الحاج تردد ، وحك يافوخه حكا تضرب به
رأسه الرقم القياسي ضد الادماء . فلم تجد عزيمته بدأ من
أن تنشط . وكان مظهر هذا النشاط أن أخذ يهبط السلم
درجة .. درجة .. بطيئاً ثقيلاً .. حتى عاد الى مكانه من
غرفته ، فاسند رأسه المتعب يديه .

هذه الحال الشاذة لم تكن وليدة الساعة في نفس
إمام ، بل وليدة الساعة التاسعة والدقيقة العشرين من

صباح اليوم . وكان الحاج في حال طبيعية بحثة. وكان مخلاً إلى غرفته ، ومعنى هذا الاخلاص أن يكون دائماً الحركة ذهاباً وإياباً وانحناء واستواء حتى ليحسبه الرائي مأجوراً أجراً حسناً على أحداث أكبر مقدار من الفوضى في محتويات هذه الحظيرة ، ومحتوياتها شتى ومتنافرة ، الجدير بالذكر منها سرير من جريد النخل عليه مرتبة من قش الأرض تمادى به الزمن والاستعمال حتى تكتل وتصلب ، وعلى السرير كتب وخبز ومرآة عديمة الشكل ، وعمامة الحاج اذا لم تكن فوق رأسه ، ومنشفة للوجه لا يجد الانف بين قطوعها مكاناً إلا بالمهارة والحيلة . أما اللحاف فقد يحتل جزءاً من فراغ النافذة ، وأما الوسادة فلها رحلة النهار والليل ففي الليل تؤدي عملها كاحدى بنات جنسها ، وفي النهار تكون على الحصيرة يجلس عليها الحاج فوق الفراء الذى تنعم به عليه « الست الكبيرة » كل عام ، وفي احدى زوايا الغرفة جبل مشدود ينوء بحمل من ملابس لم يعد الحاج

يستعملها اشفاقا على نفسه وعليها .. إنما يحتفظ بها وفاء
لعهد السنين الطوال التي قضتها في خدمته ، أما الجبة
والتفطان الحاليان فلها مسمار خاص ، على أنه ليس بالمسار
الوحيد ، بل هناك كثير غيره ، فواحد تتدلى منه زجاجة ،
وفي الزجاجة زيت ، وثان يحمل مصباحا ، والمصباح هباب
على الحائط ، وثالث لجراب فيه المصحف الشريف ، ورابع
وخامس ... وخامس عشر ! ! وفي كل مكان صناديق
من ورق أو صفيح محكمة الغلق ليس من يدري سوى
الحاج ما فائدة الهواء المحبوس فيها .

كان إمام مخلداً الى غرفته ، وفي الساعة والدقيقة
السالفتي الذكر ، طرق عامل البريد الباب ، ودخل ، وأسلمه
خطابا ، وانصرف ، في غير ما زمن ! ! فوقف المرسل اليه
مشدوها من المفاجأة . ثم عمدا الى النافذة فقرأ الاسم
والعنوان فاذا بهما صحيحان ، ولهما مقدمة فياضة بألقاب
التبجيل والتعظيم

ممن الخطاب ؟ وماذا عسى يحتويه ؟ !
وأرتج على ظن الحاج ، ولم يحرضنه تفسيراً لهذا اللفز ..
ثم قرأ الخطاب أخيراً .. فامتقع لونه ، وتراخت عضلات
وجهه .. واتسعت حدقة عينه اليمنى ، وصار انموذجا بديعاً
لمصور ماهر !! . هذا شعر وهذا نثر فيهما اعلانٌ لغرام ،
وبث للوعة وهيام .. من مطالعه « يانور عيني » الى امضائه
« شفشاً »

جعل هذا الاسم العجيب يقفز في ذهنه قفزات
بهلوانية كان في بعضها خطر على جمجمته .. من تكون
« شفشاً » ؟ وأين رآته ؟ ولماذا شغفها حبه بهذا الكم
الجنوني ؟ ! فما هو بالشباب الذي تفتن العذارى فتوته . ولا
هو بالمول الذي تستغوى القلوب ثروته ، ولا هو بذى
الجاه الذى يشفع له عند الكاعبات الناعسات الطرف
الحسان ! . هل كانت « شفشاً » هذه فى حال طبيعية
من عقلها حين كتبت اليه ؟ لئن لم يكن بها مس فقد

أوشك أن يصيب الحاج هذا المس . وخطر له أن يلجأ
الى الشيخ مصطفى يستطلع رأيه ، وكبر عليه الأمر .
وها هو ذا هم بأن يصعد السلم لعله يجد عند الجدة الهدى .
ولكنه تردد ، وعاد الى مكانه من غرفته مسنداً رأسه
لتحتمل دوران الأرض فيها .

وكان الدوران عكسياً . أرجعه سنة فسنة ، وخمساً
فاخرى ، وعشرًا فثانية . فاذا به فى عنفوان الشباب ، وقد
ترك الأزهر ليشق طريقه فى الحياة . وكان أول طريق
شقه هو « حارة الأتراك » وأول باب اقتحمه كان لمنزل
خرب اجتمع فى أرجاء صحنه الواسع شمل الكثير من
أحجاره وأخشابه بعد طول التفرق فى الحيطان والأسقف .
والمنزل لأرملة وقور تجلس عند الباب الخارجى ولها فى
شراء بقايا الخبز من المجاورين تجارة . . ولها ابنة أجرت
عليها الطبيعة قانون وراثته الأمراض ، فقضت لها بصوت
أبح ، وأنف ضامر كريحه . فاتخذها قساة القلوب من الحى

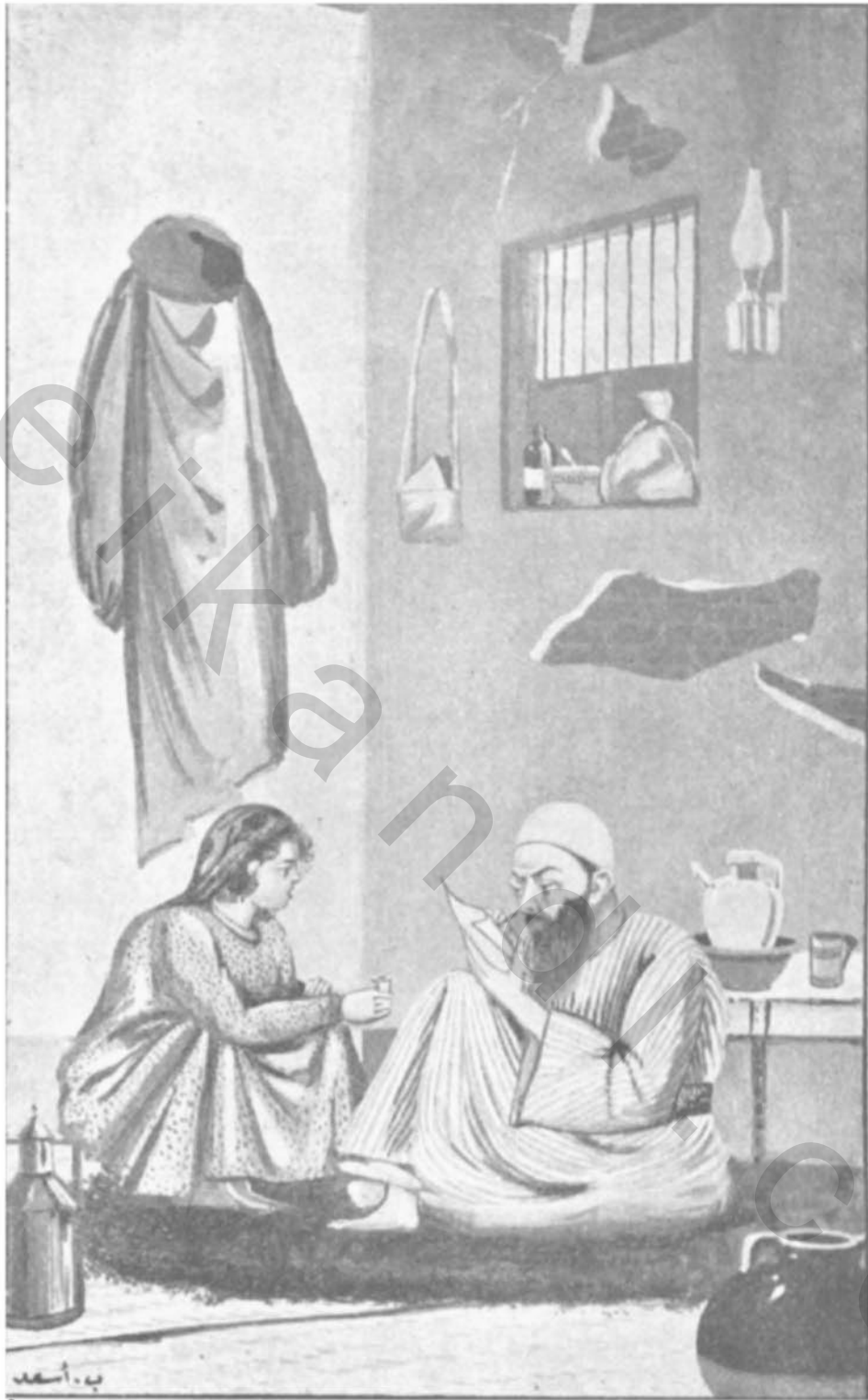
هزأة يسخرون منها في روحاتها وجيئاتها حتى غدت لا تروح ولا تجيء . وانقطعت لخدمة ما لديها من أوز وفراخ ، فهي تطلقها سحابة النهار في الفناء . وتقوم على حراستها . وفي الليل تسوقها الى الاقفاص . وكان بينها وبين رعيها لغة وتفاهم . . فبأصوات تحدثها يقبلون ، وبأخرى يدبرون .

ولم يكن « إمام » قاصى القلب ، فلم يسخر من الفتاة المسكينة . بل لم تمض عليه أيام في جبرتها حتى كان لا يقل عن أذكى الديوك فهما للفتاة . فاذا ما أحدثتها صباحا ، صحا من نومه وحياها . ويعود في العشاء ليسمع منها أمر البيت .

وعاد إمام يوما ، بعد صلاة العصر فألقى فتاته تطارد فرخة شذت عن الجماعة . ونحشى الفتاة أن تسقط الفرخة البلهاء في بئر مجاورة ، فاستنجدت به . وياسرعان ما راح إمام يلوح للهاربة بعباءته كأمر « توريا دور » ويجرى وراءها

ولكن في الاتجاه المحظور . وبصعوبة شرحت الفتاة له
وجهة نظرها ، فلم يقتنع إلا بعد أن وقفت الفرخة على حافة
الهاوية ، وجعلت تضرب بجناحيها ، والفتاة تضرب خديها
وقلب إمام يضرب في صدره !! وفي حالة اليأس هذه أتى
إمام بحركة في غاية الرشاقة ، كادت تكسر منها ساقه ، ولكن
الفرخة طارت عن مورد الردى . ووقفت وسط الفناء .
وقفة المستسلم . فتقدم إليها إمام ببطء وزهو ، فلما أهوى
عليها ، صاحت الفرخة ضاحكة ، واعتصمت برأس كومة
من الاحجار . فأسرعت الفتاة تتساق الكومة في أثرها ،
ولكن الحجر تخلخل تحت قدميها ، وفي لمح البصر كان
امام ممسكا بيدها . وزاد التخلخل ، فهوت على صدرها ، ثم
سقطا معاً على الأرض وهي بين ذراعيه . وفي هذه اللحظة
دخلت ربة البيت . . .

وكان من هول الذكري بعد ذلك أن عاد امام الى
حسه ، فاذا نجية أمامه وهي تقول في تلكو وأنوثة :



وكان يستمع على استئزال وحى البيان بمط شفتيه ، وزر عينيه ، تباعا أو معا .

- اسمع يا حاج . بس أوعى تزعل .
فأرسل الحاج إليها نظره وهو صامت . وقالت الفتاة
- جالكش جواب ؟
- جواب؟؟

قالها بأهفة مجرم يحاول انكار تهمة ثابتة . وأخفى
اضطرابه بالعبوس . وقالت نجية وقد ضاعفت استعطافها
- كان . . . كان شفيق . . بس والنبي ما تزعلش
يا حاج . . شفيق لما سافر أول امبارح ، قال لي أنه راح
يبعت لي جواب . . على اسمك . . يوصل النهاردا . .
فنظر إليها فاغرا الفم ، مسترخي عضلات الوجه ، وقال
بصوت دون الخفيض كمن يخاطب نفسه
شفيق . . شفشاً . .

- هو . هو . والنبي يا حاج .
فتنهّد أمام تنهداً طويلاً كأنه بالون ثُقِبَ
ثم أنه استل الخطاب من عبه ، ولوح به في وجه الفتاة

مؤكداً لها أنه لا شك فاضح أمرها ، وقاطع عيشها . . .
ولكن الشاي والسكر اللذين قدمتهما له الفتاة في هذه
اللحظة ، مضافين الى قدر مثلهما من حنكة الشيخوخة
أحدثا في فؤاد الشيخ مَلْغَمًا عاطفياً احدى خصائصه الرثاء
للشباب المعذب . فهذا ثأره ، وشرع يقرأ عليها الخطاب
بطلاقة هي في الواقع نتيجة حفظه له عن ظهر قلب ثم
بدأ يكتب له الرد .

فجلست نجية أمامه تحمل الدواة . . وراح يصيب
منها بقامه كل مرة ما يكفي لتلويت أصابعه ، ولاحداث
البقع على الارض ، وعلى الحائط ، وعلى الورق ، ثم للكتابة
واسترسل في ادعائه « أنه لو كان البحر مداداً ، والاشجار
أقلاماً ، لحفيت الاقلام دون بث السقام . ولجف المداد
قبل شرح المراد . . . » وكان يستعين على استئزال وحى
البيان بمط شفّتيه ، وزرع عينيه ، تباعاً أو معاً .

وفيما هما كذلك ! إذ دخلت حواء . وكان من

عادتها أن تحيي الحاج كلما رآته . وتأهب الحاج للتحية بأن
أخفى ما في يده . ولكن حواء لم تفعل هذه المرة .
وصعدت السلم على الفور . وما كاد أهل الغرام يمدان
حسن حظهما على هذا الاغفال ، حتى سمعا الجدة تنادى
نجية في لهفة لم يعهداها من قبل .

الفصل العاشر

— مالك يا حبيبتي؟ مالك يا ستي؟ اسم الله عليك .

اسم الله ...

قالت لها الجدة بصوت يرتعش ، وقلب يرتجف . وقد
ابردت أطرافها حتى تأذت حواء من وقع أنفها على خدها
حين أكبّت عليها . ولما لم تجبها حواء ، تحولت عنها
وأدارت حولها نظرات الحائر الذي يريد أن يأنس بأي
شيء ، وأن يستنجد بكائن من كان . لذلك نادى الخادمة
ودخلت نجية فراعته غرابة الحال ، فلبثت مشدوهة حيناً
ثم مشت على حذر إلى سيدتها الكبرى تستطلعها الخبر .
— مال ستي الصغيرة ؟

— مش عارفه ايه اللي جرى لها . . ايه اللي جرى

لها مش عارفة ! !

وكيف للجدة أن تعرف ؟ لقد كانت جالسة

جلستها المعهودة في مكانها المعهود، فسمعت حواء تصعد

السلم ، فتوقعت أن ستدخل حواء إلى غرفتها تبدل ثيابها

ثم تجيئها تشرب معها القهوة وتستريح - جرياً على عاداتها -

ولكنها لم تفعل ، بل ما كادت تتوسط الصلاة حتى

ارتمت على مقعد إلى جانب المائدة ، وأخفت وجهها في

ذراعيها ، فضربت الجدة صدرها وهبت من مكانها تتعثر

في أدوات القهوة ، ولم تبال بمخالب القط في قدمها حين

اعترضها فداست عليه .

وأعادت الجدة استفسارها متوسلة اليها بالنبيين

إلا ما أجابت . وخطر لها أن تأتي بماء النعناع لها فهو

منهش ومفيد . وهمت بالذهاب ثم لم تشأ أن تبعد عن

الحفيدة العزيزة طرفة عين . وفي هذه اللحظة تضاعفت

عُتمة المغرب في عينيها ، فأمرت نجية بأن تضيء المصباح
وبأن تجيء بالنعناع . . وطلبا آخر لم تتمه ولوحت بيدها
تنفيه . . فصعدت نجية بالأمرين ، وجاءت من تلقاء
نفسها بقدر من الماء ، وما وضعت ما بيدها على الطاولة
حتى أمرتها الجدة بأن تنادي الحاج امام . وكان من لهفة
العجوز أن خنقت الفتاة العبرة . ووضع ذلك في صوتها
وهي تنادي من رأس السلم . عندئذ رفعت حواء وجهها
مصفراً وعينين مطبقتين نصف إطباق وقالت .

— مافيش لزوم . مافيش لزوم

فقال العجوز وقد دب فيها الأمل .

— طيب يا حبيبتي . . بلاش يا بنت . . مش تقولى .

لى مالك يا اختى

وقالت نجية وهي تبتسم وتمسح دموعها :

— ستى !! ...

ولم ترد . وقالت حواء وقد كرهت أن تنزعج لها

الجدة هذا الانزعاج

— مافيش . . أنا تعبانة شويه

أما الحاج فكان قد حسب أن اغفال حواء له عند دخولها أن هو إلا استنكار لوجود الخادمة عنده، وأن ما وصل إلى مسمعه من هممة أثر استدعائها ليس إلا اعلاناً لهذا الاستنكار، ورأى من الخير أن يغادر المنزل لينجو بنفسه . . وليضع الخطاب في صندوق البريد

واجترعت حواء ما قدمته لها الجدة من ماء ونعناع ثم قامت إلى غرفتها فاستلقت على سريرها . وأرادت أن تشغل الجدة عنها فطلبت شاياً . . فانصرفت المعجوز تجر ساقها، وتلعن المدرسة والجمعية والمشغل . . والخادمة تساعد في إعداد الشاي، وفي استنزال اللعنة . . وجملت حواء تشد على قلبها رحمة به وبالجدة المسكينة . . وجاء الشاي، فأفاد حواء بعض الفائدة، فمسحت جبينها، وابتسمت ابتسامة خفيفة .

— استريحى يا حبيبتى ؟

— الحمد لله

— له ألف حمد

وصاحت نجية فى سرور « ستى » ولم ترد أيضا ،
فابتسمت لها حواء . واستطردت الجدة تقول :

— ايه كان دا كله؟! ماقلت لك ما تتعيبش نفسك
أد كدا . . أهو جالك كلامى . . الذى يارب ما تدخل لنا
ردى أبداً (وبعد فتره قالت) الأحسن ' تقلى هدمك
علشان تحدى راحتك . .

فاستجمعت حواء قواها وأجابت الرجاء ثم عادت
إلى استلقائها وجلست الجدة على شيزلونج مجاور لتكون
دأمة النظر إلى الحفيدة العزيرة . وكانت الخادمة أضاءت
مصباح الغرفة حين شرعت سيدتها تبدل ثيابها ، فأمرت
حواء باطفائه : فسادت العتمة ، والصمت . وسمع صوت
بندول الساعة فى الصالة . ولكن الطمانينة لم تسد .

وعادت إلى الجدة فكرة استدعاء الحاج إمام ، ثم ذكرت أنه لا شك يصلى في الجامع كمأدبة . فلاذت بالله تدعوه سرّاً وتتوسل إليه .

وكان للراحة ولهذا المحيط الرحيم أثرهما في نفس حواء . فتبادر إلى ذهنها أن شيئاً لم يحدث ، وأنها كانت تحلم . . ولكن جرس التليفون عاد يرن في أذنيها ، وصوت فريدة هانم يعود إلى ذهنها حياً جليلاً . . . ثم الباشا وابتهاماته الحيوانية ، وقصته الطويلة المملة . . « على بركة الله ! ! » فكررتها ، وهزت اكتافها ، ومضت تناجي نفسها « هذا بله صريح . . لقد اكتسب رمزى من هذه الخطوبة عزبة ان لم يكن حباً . هذا ما كنت سأصرح له به حين سألتى رأيي . . أما أنا . . فمالى ؟ . أى شيء كان لى منه وفقدته حتى أذهب روحى حسرات عليه ؟ ! لم يكن حيا لى الا جامداً بارداً ، وما كان تحدثه لى الا لهواً منه . . وهو على صبيانته محتفظ بشخصية

الارستقراطي أمام بعض فلاحيه المقربين اليه . . انتهى
الأمر . . فليهنأ بعروسه . . وبالعزبة الجديدة . . اننى لم
ابلع من السن عتياً ، ولن أعدم . إذا شئت . أحداً يحبنى
وأماى أيضاً أن أضاعف جهودى فى الحركة الوطنية ،
فأصبح شخصية يشار اليها . وسأعمل . » وأرادت أن
تثبت لنفسها قوتها وعدم اكترائها ، فأخبرت الجدة
بخطوبة رمزى إلى ابنة تقيدة هانم أرملة ذهنى بك

— بنتها مين ؟ . . دولت ؟ !

فهزت حواء رأسها بالأيجاب

— ماتقوليش كدا ! . هى دى تنتظر !

فطت حواء شفيتها ، وعادت الجدة تقول :

— والنبي يابنتى على رأى المثل . لولا علبة أم مكى

كان حالها يبكى . . .

ومكى ابن وهمى لأم خرافية . وكان الام علبة

سحرية حقتها الأيام فاذا بها «التواليت» وقالت حواء

وقد غلبتها الغيرة :

— لكن لها عزيمة تنتظر... —

فقرزت المعجوز سبابتها في خدها ، وسهمت حيناً
وهي تهتز اهتزازاً بطيئاً يساعدها على ماجاش في صدرها
من عواطف الاشفاق نحو حفيدتها التي تفنى شبابها على
ذلك النحو المضى ، ثم مصّت أشداقها وقالت «أبحاث!»
وأرادت حواء أن تضحك ضحكة عالية . ولكن العبرة
خنقتها، وطمغى على تفكيرها تيار أسود يقول «... ولكنها
الفرصة أفلتت ، والحب خاب ، والقلب شاب وهرم ، ولم
يفلح في التصابي !! .. ان اثنتين وثلاثين سنة قضيتها في
رجولة زائفة أقامت بيني وبين الحياة مثل سور الصين
لا حول لى الآن على القفز من فوقه ، إلى حيث الجميع
يمرحن ... امهات وغير أمهات .. وأنه ليعلو كل سنة
.. كل شهر .. كل يوم .. أو أننى أهلك وأنا أضرب رأسى
في أماسه ... » فارتعدت حواء لهذا الخاطر . وبمجهود

لا تنبهي كانت تمن النظر في العتمة القائمة أمامها كأنها
السور الذي افترضته . ثم . . .

أى عجب !!

لقد بدت أمامها صورة رمزي ضعيفة راقصة كما
لو كانت تراها من خلال ماء . ثم وضحت شيئاً فشيئاً
حتى استبان من أهداب العين . وهذه خطيبته تمشي إليه
على استحياء . . . وها هو يقبل عليها فيعصرها بين ذراعيه
ويعم فيها تقييلاً . . . تلك القبلات . . . تلك القبلات التي
طالما نعمت بها في أحلامها . والتي كانت تود في يقظتها
لو أن تقتدى أحداها بحياتها .

عند ذلك علا صدر حواء ، وعلى الرغم منها
أجهشت بكاء كان جسدها ينتفض به انتفاضاً !! فنهضت
الجدّة في فزع جنوني . وراحت تلطم خديها دراكا
وبعنف وهي تقول « بنتى . بنتى . بنتى !! » وجرت
الخادمة إلى السلم مذعورة وهي تجأر باسم الحاج إمام .

ومن حسن المصادفة أن كان امام حضر منذ هنيهة ،
فأسرع على السلم جهده . وأضاءت نجمة المصباح . والجددة
ماضية في اللطم والندبة . وحواء على الفراش تتلوى
وتنشج .. وشرعت نجمة تشرح الأمر للحاج وتستنجد
في وقت واحد .. وهو ذاهل لا يصدق ما يرى ويسمع
ولا يدري ماذا يفعل .

وهنا صرخت حواء من بين أسنانها المتضاغطة
صرخة حادة كظيمة ، واتبعتها حشرة عنيفة . وصارت
ترفع يدا متصلبة أثر أخرى وتضرب بهما الفراش على
الجانبين . ثم تحولت جميعها أصلد من صخر .. فارتجت
الجددة عليها تضمها وتهزها . وتبسل وجهها بالدمع ،
وتستعطفها بشيخوختها ، وبحق الرباية عليها ، وبأملها
فيها ، إلا ما أفاقت .. فلما لم يجد ذلك ، والحشرة دائبة
عمدت المسكينة الى صدرها تضربه تارة وتنشبت بالهواء
تارة أخرى وهي تقول :

— الحقنى يا حاج امام .. انجدنى .. الحقنى .. شوف
لك حل يا خويه .. ليه كدا يارب .. دى بنت مسكينة
.. دى شابة غلبانة .. منكسرة تحت رحمتك ... الحقونى
بالشيخ مصطفى يا ناس .. غيتونى به يا خواتى .. روحى
انت يا نجيّة ...

فثارت عزة الحاج وقال يطمننها ولكن فى عنف :
— دى مش أرواح سفلى يا فاطمه هانم .. الشيخ
مصطفى يعمل إيه فيها .. داشى .. من عند الله ، وحالا
ينصرف باذنه .. بس اهدى وصلى على النبي .. وأنا
أعرف شغلى ...

وأكب الحاج بدوره على حواء .. فتمتم بالصمديّة
ثلاثا .. ثم تلا صيغة الأذان فى أذنها .. وما زال حتى
هدأت الحشرة ، فامسك وابتعدو على وجهه عبوس
النصر الحزين .. وأشار بيديه يطلب الهدوء .. فربطت
الجدّة على قلبها ، واقتربت من السرير فاذا الحفيدة

العزيزة تنفس في لين النوم الهادىء .. وخيم صمت
رهيب . وتعلقت الأعين بالصدر الذى يعلو ويهبط ..
وبعد فترة طويلة فتحت حواء عينها ، وجعلت تفركما
بظهر يدها . فلما تبينت من حولها سألتهم لم هم واقفون ؟
فقالت الجدة فى دهشة

واقفين ؟ ! . انت ...

فأوماً الحاج اليها بالسكوت ، إذ كان لا يرى من
الخير مفاجأة المريضة بالحقيقة . وقال وهو يحك لحيته
ويبتسم .

— ما فيش حاجة .. دى كانت دوخة بسيطة
وزالت بعون الله ...

وثبتت عمامته فى رأسه اغتباطا بما أسدى ...

الفصل الحادي عشر

لم يعرف البيت الهاديء الهدوء بعد تلك الليلة ! .
فخواء تحمل في غدواتها وروحاتها ، ونومها ويقظتها
قلباً لا حول لها على حمله .. لا الحجر ، ولا الحديد ، ولا
الرصاص ، ولا الزئبق باثقل منه وزناً . ولا اللهب بأشد
منه حرارة . وقد شحب لونها ، وتضعضت صحتها
وكثر وجومها ، وتكرر نسيانها لأهم الأمور . . . بل
ليحدث الحادث قريباً فتحسبه بعيداً أو أنه لم يحدث . . .
فالتفتت إليها الانظار ، وتحركت ، في سيرتها الألسن .
« ماذا جرى لحواء ؟ وما هزلها والذهول البادي في عينيها ؟
مسكينة هذه الشابة ، أنها لتطمح الى مجد بعيد ، وتتكلف

من أجله جهودا تنوء بها الرجال ! ! . « ولكن أحدا لم
يفطن الى سرها ، فهي ضئيلة به حتى على توسلات
جدها ودموعها المرققة في أخايد وجهها .

وكانت تذهب الى الاطباء تحت الضغط والالاح
فيجسسون نبضها ، ويتسمعون دقات قلبها ، ويمعنون النظر
في أجفانها ، ويسألونها عن الدوار متى ينتابها وكم يدوم ،
واسئلة شتى غاية في الدقة الفنية ، ثم يصفون لها حبوبا
قبل الاكل ، وسوائل بمعدة ، وبرشاما كذا وحققنا
هكذا بين ماطف ومقو ، وقين بان يحىء بأحسن الاثر .
ثم لا أثر . . وأقبل عليها أحدهم يستدرجها في الكلام عن
حالتها المعيشية ، وعن توزيع أوقاتها ، وعن أفكارها في
يقظتها ، واحلامها في نومها بغية أن يستشف نفسها فيرى
كين الداء . وفطنت حواء الى ما يقصد اليه ، فاحترست
وراوغت . على أنه نصح لها بالهدوء والراحة ، واجتناب
كل ما يقلق البال ويثير العواطف ، ولتضرب بالعقاقير

عرض الحائط . . . حتى بالدواء الذى وصفه ، إذا شاءت ،
أو لاتعاطاه إلا عند الضرورة الماسة ، ولا يفرها ما يحدثه
من راحة قدسرف فيه . فان الا كثار منه يؤذى القلب
وربما أوقفه .

وأدركت حواء فترة إرتياح لقرارها من هذا الطبيب
فلما خلت إلى نفسها صاح قلبها الكظيم « ياربى . . ماذا
عساى أقول ؟ ! أنا التى كلفت منذ طفولتى لأكون مثلاً
يقتدى به . وخلصت أننى حققت ما نصبت له نفسى . .
أنا التى قضيت حياتى مخلصه لك فى عملى وعرضى . .
لماذا تحطمنى هذا التحطيم . وتسحقنى هذا السحق الأليم . .
يا الهى ! كتبت على نفسك الرحمة . وأنا أطالب . ثم
أطالب بحق من الرحمة . . ووعدت الحسنة بعشر أمثالها ،
ولا أريد الا جزاء من عملى ! ! وقلت أدعونى أستجب
لكم . وأنا أدعوك ياسميع ، وأضرع اليك يا بصير . . هل
أنت تنظر إلى من، عليك هازئاً . . حاشاى أن اعتقد .

ذلك .. أم مشفقاً .. فلتقل « كن » فيكون لى النعيم
الموفور .. إلهمنى حكمتك فأرضى . كلنى .. فأنا لا أريد
أن اتكلم إلى الناس . بل لا أستطيع .. لن أجد منهم
إلا سخرية بفاجرة ، أو مرثية لمسكينة ، أو استهزاء
بمعتوهة .. أنا الطاهرة ، أنا القوية العاقلة ..
وتبكى ، وتنشج ...

وتذهب الجدة إلى أولياء الله — أحياء وأمواتاً —
تلثم أعتابهم ، وتبلل ترابهم بدموعها ثم تجعل منه على
رأسها . وتقدم النذور ، وتبذل الطعام لمن على أبوابهم من
مسكين ویتيم .. ولا تسألهم إلى شفاعاة لحفيدتها ...
وتغادرهم إلى المنجمين رجالاً ونساء — تطلب إليهم تفسير
حلمها . فقد عاد اليها « سرور » فى نومها ، وأوماً اليها أن
تتبعه ، فتبعته إلى غرفة حواء هذه المرة .. وهناك رأت
الشمعة تحترق بسرعة أكثر إدهاشا عن ذى قبل .
وتحدث مادتها السائلة هيئة جسد ملفف فى غلالات

بيض . . فيكتبون لها التمايم ، ويلقونها التعاويد ، فتدس التمايم هنا أو تعلقها هناك ، وتكرر التعاويد ليلاً ونهاراً .. ورضيت حواء أن تحمل التمايم ، وأن تتلقن التعاويد ، إحتراماً لجدها ، واحتقاراً للحقائق .

وذهب الحاج امام ، قد عنقه في الفرجة التي تباعد ما بين أنياب الأفعى يمينا ، ومخالب الضبع شمالاً ، وظهر السلحفاة من أسفل وأظافر الوطواط من أعلى ، وأهاب بالشيخ مصطفى يطلب منه النجدة الكبرى . فبرز مصطفى ، وسهم طويلاً في عالم أسرارهِ ، ثم وعد بأن يحضر اليهم بعد صلاة العشاء . وبعد صلاة العشاء حضر . . وجلس في غرفة حواء جلسة المهيمن . وأمر بنار توقد فأوقدت . وبحواء تلبس طرحة بيضاء فلبست . . ومد إلى النار يداً جبارة فأحرق بخوراً جاء به ، وأمرها بأن تخطي فوقه سبعاً ، فخطت فوقه سبعاً . خائفة وهائلة مما . ثم ساد الصمت ، وتضاءل كل في مكانه ، وتعلقت

الانفاس ، ووضح صوت الساعة في الصلاة كأنه وقع
خطوات الزمن . سريعة غير مكترثة . وماء القط في وجه
نجية يستفسرها ما يرى . فلما لم تجبه أراد أن يلوذ بحجرها ،
فانتهرت . فقنع بأن ينكمش إلى جانبها . وأتأثر الرجل
الهائل نظراته الهائلة في عيني حواء . ثم ارتعش جسمانه
الضخم . وزاد وجهه إحمراراً . وراح يرغى بما يفهم ومالا
يفهم . ويحدث أصواتاً وأسماء أصوات . وكلمات وأشباه
كلمات . يصعب ترديدها إلا عليه . فيها استفهام . وفيها
نفي . . وفيها أمر ونهي . .
وحواء . . .

الشخصية البارزة في المدرسة والجمعية والمشغل .
تصيح بسمها إلى مصطفى ، وترسل تجاه ما يشير إليه
نظرات خائفة .. هذه الرزينة المتعالية ، تكرر الأصوات
وأسماء الأصوات ، وتعيد الكلمات وأشباه الكلمات التي
يفوه بها الرجل . تعيدها في لهجة الجواب إذا استفهم ،

والتأمين إذا نفي . وفي خضوع إذا أمر ، وفي دموع إذا نهى ،
وما زال حتى استغرقت في نوم عميق ، وثاب هو إلى حاله
الطبيعية . فhez رأسه آسفا وقال .

— مسكينة . . . ذى يا حاج إمام لمستها روح من
الأرواح العاتية . .

فاسرعت فاطمة هانم تقول .

— والعمل إيه دلوقتى ؟ !

وقال الحاج شيئا ولكنه ضاع في قول مصطفى .

— الفعل فعل الله . إحنا بيدنا شىء . .

فقالت الجدة :

— آمنت بالله ! . إنما أنا ماألزمهاش غير منك

فصمت مصطفى تواضعا

وقال الحاج يعزز تشبث فاطمه هانم :

— هو الشيخ مصطفى عاوز وصية !

وفي هذه اللحظة صاح في الشارع أحد الباعة

المتجولين يقول « خليها على الله » فقفزت نجية من مكانها
طرباً بالقأل الجميل . وكذلك سُر به الجميع ، واتخذوه بشيراً
بانفراج الأزمة ما تشبثوا بالشيخ مصطفى ، ولم يدعوه
يفلت من أيديهم . . ثم خاضوا في سمر طويل تذاكروا
فيه مآلجان من حسنات وسيدات . وما لأهل الباطن من
أثر فعال في تسيير الحياة الظاهرة . واجتمعت الكلمة
آخر الأمر على لعن الطب والأطباء ، والعلم والعلماء ،
الذين ينكرون هذه الحقائق . وبعد إرفضاض الجلسة
نامت الجدة بالأمل والطمأنينة .

وجاء الصباح ، فاذا حواء أكثر ما كانت ذهولاً
وحيرة وخجلاً من نفسها !! وكلما ثبت لها أن ليلة الأمس
كانت حقيقة لاحتها ، اضطرب ذهنها ، وتصدعت قواها
المعنوية ، وتفتت عندها الحياة ، وفقدت ألوانها ،
وأدركها إحساس مبهم بأنها غريبة عن كل ما يقع عليه
بصرها ، أو ما يجول بخاطرها . ولأول مرة في حياتها

شعرت بالنقمة على جدتها ، وبالأزدراء المطلق للحاج ..
أما مصطفى فودت لو أن تظل تضربه بحذاءها حتى تفتت
رأسه تفتيتاً . . . هذا الثالث القدر الذي إنتهز فرصة
مرضها وضعفها ليهزمه الهزيمة الساحقة ، وليذلها الاذلال
المميت . . . ما لبثت أن تراخت تقمتها ، وفتر إزدراؤها ،
وبصقت على خيال مصطفى كشيء أحقر من أن يشغل
ذهنها .

ولكن — بعد هنيئة — ألفت نفسها تحدثها خلصة
بأن تذهب إلى الشيخ في حانوته تستفسره عما إذا كانت
أعلنت له سرها بهذه اللغة العجيبة التي قيل بأنها كالمتة
بها . وتستعطفه ، وتبذل له المال ليكتم حتى عن جدتها
ماعسى يكون قد علم ولسكنها طردت عنها ذلك الخاطر
المهين ، وتشاغلت عنه بأشياء عدّة . . وفجأة أدركتها
قشعريرة وقالت بين أسنانها المتضاغطة : « ماذا يكون
من الناس حين يبلغهم . على الأقل . أنني جلست إلى



«وخرت حواء صريعة بين ذراعيها»

الماحر وليست طريحة ييضاء . وخطوت فوق البخور .
ورطنت باللاوندى !! « وتضاحكت تضاحك المغيظ . .
« ولكن ما الناس ؟ وما العالم ؟ ! الكل أحقار . . »
وهزت أكتافها . . « ولن تكون همساتهم إلا طنين
ناموسة على رأس فيل . . وأنا مازلت أنا بشخصيتي
وكياني !! . » على أن نفسها ناءت بهذا الفخار وتحاذلت
تحتة ، وشعرت بالمغيظ والخجل كأن رمزي باغتها وهي
في طرحتها البيضاء .

بهذه الحال النفسية السقيمة المشوشة وقفت حواء
تملى على تلاميذها أن « رجلا طوله ستة أمتار . . »
فتطوعت أقرب البنات اليها تلقت نظرها إلى أنها تعنى
ستة أقدام لأمتار : فلم تدرك حواء سهوها . وأضافت أن
« عرضه متران . . » فتضاحكت التلميذات وتهامسن
بالفكاهة . . وأعلنت جريئة منهن أن ربما تكون معلمتهن
تريد ما تقول بذاته . فقد تكون تعرف شخصا بهذه

الابعاد الشاذة . واصطكت هذه العبارة بسمع حواء ،
فثابت إلى حسها ، فاذا الضحكات عالية ، وإذا الفصل
مضطرب ، بالاعهد لها به إطلاقا . . فانتهرت التلميذات
فجاءت مقذعة فيما بدّر منها . . فتصايحن احتجاجا ،
ولم تُجد وساطة بعضهن في إلتماس العذر لمعلمتهن التي طالما
أحبيبنها ، والتي لم يعتدن منها إلا الكمال والأدب ،
وحضرت الناظرة تستطلع الأمر . وأرادت التلميذات أن
يعززن مركزهن فغالين في ضجيجهن ، وقالت إحداهن
بلهجة خطائية « نحن نحتج على الأهانة دي ! » وضربت
التخته أمامها . وآزرتها ثانية فصاحت في احتدام وكبرياء
« لو سمع بابا بكدا ، ما أعرفش يعمل إيه ! » وأخريات
أجهشن بالبكاء بين حقيقى فى مفتعل . وحواء صامته واجمة
حائرة النظر ، وفجأة ارتجفت رجفة قاسية وأوشكت
تهوى على الأرض لولا أن تلقى الناظرة بين ذراعيها .
ولكنها كانت تذهب إلى بيت الباشا . .

وكان رمزي غير نخط حياته بعد أن تم التعارف بينه وبين خطيبته . . فلم يعد يقنع بالدار أو بالحديقة ، ولم يعد يُعنى بمكتبته يرتبها ويعيد ترتيبها فهو الآن مشغول بخطيبته لا يكاد يعود من الوزارة حتى يذهب إلى غرفة الكاتب يراجع حساب العزبة الجديدة وقد القى الباشا عبئها عليه «عشان تطول رقبتنا لما تبقى مسؤول عنها شرعا» وسرعان ما اعتنق مذهب والده في أن الفلاحين أمكر من الثعالب . وأخبت من الذئاب . وأنه لا يجب أن يرثي لهم أو أن يرأف بهم . . . فاذا ما انتهى من ذلك ذهب إلى خطيبته يطاعها على مجرى الأمور ، أو يصحبها إلى السينما أو يخرج بها إلى نزهة ، لذلك لم تكن حواء تلتقاه إلا نادراً فاذا التقيا مصادفة استفسرها عن صحتها ، وابدئ أسفه ودهشته مما تعانيه . « ولكن لاغرو . أنت يا أستاذة بتجهدى قواك وتفكيرك في سبيل الخدمة العامة . وتحقيق مثلك العليا . وطبعاً

إذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام
لكن ان شاء الله ، في أجازة الصيف .. أظنك ..
ماترفضيش كونك تجي معنا العزبة .. تهدي أعصابك
و...و... تستريحى راحة تامة .. شهر .. شهرين ..
زى ما تجي

ثم يسترسل في سرد آماله في زواجه ، وهو مستبشر
متهلل الوجه ...

ويعضى إلى خطيبته ...
ويعضى حواء إلى الجحيم المقيم ...

الفصل الثاني عشر

انتهت السنة الدراسية ..

وانتهى كل أمل لحواء ..

ثم اقرب اليوم الذي فيه « يدعو اللواء تنظيم باشا السيد حضرتكم إلى منزله بمناسبة زفاف الأنسة سعاد هانم ذهني كريمة المرحوم القائمقام ذهني بك عبد الفتاح على بحله رمزي بك تنظيم الموظف بوزارة الزراعة ... » كما جاء في رقاع الدعوة المكتوبة بماء الذهب .. فخرج المال لاستقباله جزافا وأدرت الضيعتان عليه من خيراتها جزافا .. فالفراشون في حركة النمل ، طائفة تقيم الأعلام وطائفة تنضد المقاعد الفاخرة ، وجماعة يكسون الأرض

رملا ، وجماعة يعقدون أكاليل الورد فوق المداخل
والأبواب ، وآخرون يمدون قلائد المصاييح الكهربائية
ويتفننون في صنوف الثريات . والطهارة في ثيابهم البيضاء
مضت عليهم ليال وهم سهارى يذبحون ويسلخون ،
ويخرجون من العجين فناً متعة للناظرين .

وكانت حواء اشتد بها سوء الحال . وصارت سريعة
الغضب . كثيرة الدموع . قريبة الصرع . وكثيراً ما
تحامقت على الجدة أو أجهت الحاج أو انتهت الخادمة
لأثمة سبب . وكانت تشعر أن المنزل حيطانه تريد أن
تنقض عليها وجوه سوف يودى بها . وكل ما فيه متجهم
كرهه . تقتركه قهيم على وجهها فاذا هي في أما كن لا
تدرى كيف صارت إليها . بل لفي مرة صاحت بالعجوز
الممزقة القلب بأنها هي أس الشقاء ومصدر البلوى بخرافاتها
وسخافاتها . وما تحيطها به من الجن والشياطين وأنها لو
ذهبت إلى الله ما اشتكت غيرها

ولكن فجأة . . أو هو عند ما بدأت تبشير
العرس في بيت العروسين . هدأت ثورة حواء !
وهجعت نفسها حتى ارتدت الدنيا عندها أشباحاً لاصوت
لها ولا حياة فيها . وحلّ لها أن تعتكف في غرفتها فتظل
مستلقية على سريرها ساعات وساعات يسترسل فيها
تفكيرها دون سيطرة منها عليه كينبوع يتحدر ماؤه كيفما
شاء . . فهو يستقيم ويلتوى ، ويتباعد ويلتقى ، ويسرع
ويبطئ ، دون ضابط له أو مهيمن عليه . وما كان نصيب
حواء من تفكيرها هذا إلا نصيب الحالم من حلمه ، لا
يكاد يستيقظ حتى ينساه ، أو يذكر منه القليل ثم لا يُعنى
بأن يتقصاه .

فلما كان يوم الزفاف ، بكرت حواء ، فأكبت على
مكتبها تملأ الصحف بلا هوادة ، حتى أشبعت نفسها
وأثت على آخر ماتريد أسطيره ، ثم وضعت في غلاف
كتبت عليه عنوان رمزي . ثم ذهبت إلى جدتها

فشاربتها القهوة ، وآكلتها طعام الإفطار، وتحدثت إليها
في مواضيع شتى اتصلت بذكر حفلة الزفاف فقالت حواء

— ما تروحي الفرح تنفرجى ..

— أروح الفرح؟! .

— تنفرجى شويه

قصت الجدة شذقيها، وقالت بعد نهدة قصيرة

— يا لله حسن الختام بقى .

وسادت فترة صمت ، بدا أثناءها شرود الفكر

على كل منهما ، ثم استأنفت الجدة كلامها .

— والنبي ما عندي فرح إلا يوم فرحك انت !

فأعادت هذه العبارة حواء إلى حسنها ، وشعرت لها

بوخز أليم ، وهمت أن توقف الجدة عن الكلام، ولكن

حواء هدأت على غير إرادة حقيقية منها، وقالت فيما يشبه

الملاطفة.

— بكره راح اتجوز جوازه ما تخطر لكيش على بال

فالتفت إليها الجدة دهشة متهلة وهي تقول .
— صحيح؟! ربنا يسمع منك .. مين؟ .. مين هو .
واكن فجأة . انقبض صدر حواء ، وأسفت لهذه
الدعابة القاسية وقالت بابتسامة عصبية
— بكره تعرفى .. قصدى .. أ .. بكره .. بكره ..
ثم غيرت مجرى الحديث فأبدت رغبات وعدت بها
الجدة عن طيب خاطر ، وأسدت لها الجدة نصائح تقبلتها
القبول الحسن . فتהלل وجه المجوز ، وفرح قلبها بالجلسة
التي لم تنعم بمثلها منذ أشهر
وعمدت حواء إلى البيانو فعزفت اللحن الذي كانت
اصطنعته لبنات المشغل . وأجادت أدائه . عند ذلك سهمت
طويلا . ورن في أذنها صوت نجيه تستفسر عما إذا كانت
تشتري الغازوزة بالقرش كله أم بنصفه فقط . « لم تكن
خيبة يوم .. بل خيبة العمر كله !! » وأوشكت تبكى .
ولكنها تشجعت . فقامت فتشاغلت في غرفها ساعة

خرجت بعدها من المنزل فوضعت الخطاب في أول صندوق
بريد صادفها . وزارت بعض الحوانيت ثم عادت بصندوق
كبير من ورق مقوى فوارته في غرفتها

وكان قد حان وقت الغذاء . فطلبت إلى الحاج أن
يشاركها وجدها الطعام ، وانعكس ماظهرت به حواء من
طمأنينة وسرور على نفوس الجميع فراحوا مطمئنين
مسرورين . وبان ذلك في اشراق وجه الجدة وایماض بسماتها
وبان ذلك في سرعة ذراع الحاج بين فمه والمائدة . . ونجية
على مقربة من سيدتها الصغرى متحفزة لأن تنقض عليها
بأى طلب تطلبه . وأبت إلا أن تشرك في الحديث
فباغتتهم بصيحة منها قائلة

— ستى ! . . خلى الحاج يحكى لك اللى قاله لنا

امبارح

فاتجهت الانظار اليها مستفسرة . وعاجلها الحاج
يقول ويقلد لهجتها :

- وایه اللى قتلته امبارح؟
— حکایة ربنا لما غرق المركب مش کدا یا حاج؟..
— غرق المركب!؟
— والنبي یاستی دی حاجه تضحک خالص
فقالت الجدة تذكّر الحاج
— المجنونة دی تقصد حکایة سيدنا الخضر لما...
— آ. آ. دی حکایة تضحک یا ملعونه؟! أعوذ
بالله!.. دی یا حوا هأم یا بنتی..
فقالت حواء بفتور
— عارفاها.
— لما سيدنا الخضر وجد غلاما فقتله.. ووجد..
— عارفاها. عارفاها..
وتدخلت نجيّة تضحک وتقول
— والراجل الثانى بقى يقول له « ما اقعدش معاك
یا بوسمرا.. ما اقعدش معاك یا بوسمرا! »

فقالت حواء وقد أدركت قصد الخادمة

— قصدها تقول « انك لن تستطيع معي صبرا »

فتمتت الجدة تستغفر الله ، ورمت الفتاة بنظرة

امتعاض ، أما الحاج فقال

— دى تضحك دى ؟ ياسلام ! دى تبكى ! دى تدل

على أن الله سبحانه وتعالى لا تجرى إرادته الا لحكمة ..

فوضعت حواء المعلقة من يدها ، أو أن المعلقة

سقطت من يدها على غير عمد منها ، وهمت بأن تصيح

في وجه الحاج المتحمس « اذا كان موسى وهو نبي ، عجز

عن معرفة إرادة الله فيما رأى بعينه فقط . . ولم يستطع

عليه صبرا فكيف بها هي . . وهي ليست من النبوة في

شيء . . وقد أجرى الله عليها ارادة غامضة حطمها تحطيا .

من لها بخضر آخر يجلوها الحكمة ، ويحل لها اللغز . .

ومن يلومها إذا لم تستطع عليه صبرا . . . ! » ولكن

حواء تماكنت جأشها في لمح البصر ، ثم قالت وهي

تبتسم :

— رمزى بك وصف نجية دى أحسن وصف ...

قال انها بقرة آدمية ..

فقال الحاج وقد طرب

— الله ! الله اكبر .. أحسن وصف .. بقرة آدمية

تمام .. من غير شك

وتركت حواء الجدة والحاج يتحلبان المنى بانفراج

الشدة ، واستلقت على سريرها ، فلم تنتبه إلا على صوت

موسيقى الجيش وقد صدحت فى بيت العرس . وبداهة

أنها دعيت الى حفلة الزفاف ، فقامت تتأهب لها يعاونها

أهل المنزل أجمعين ، ويحاق فوقهم صوت الخادمة .

وفى معممة الحفلة ، جعلت حواء تذهب وتجيء ..

تساعد فريدة هانم فى مشاغلها الجملة .. ويحدث أن

يصادفها الباشا فيمش لها ويقول « أدي يومك ...

اشتغلى . اتعبى .. نتعب لك يوم فرحك . » فتبتسم

وتنضى فيما تكون فيه . وتصادف أن انفردت برمزي في
غرفة فقال لها :

— ما رأيك

— دى حفلة بديعة . بديعة جدا

— ولكنى أقول لك بصراحة . . .

وتوقف رمزي عن الكلام هنيهة من احتياج
مشاعره . . فشاعت الفوضى في احساس حوا . مما عسى
سيصارحها به ، وجدت مكانها الى أن قال رمزي

— أقول لك بصراحة أننى . . خائف كالاطفال

فثبت حواء الى حسها ، وتضاحكت وهى تقول:

— أوه . . هون عليك . . دلوقت تنهى المظاهر

دى المثيرة للاعصاب ، وتكون مع عروستك . . وأنا طبعاً

اقدم لك أخلص التهاني ، وأرجو لكم كل سعادة

وهناء . .

واهتز صوتها عند النهاية بنبرة عجيبة . . ولم تستطع



ووهت قواها فارغت علی مقعد قریب

عند انتهاء كلامها الا ان تقبله في جبينه . . قبله حملها الفتى
معنى الأخاء ولو أن حرارتها لم تخف عليه ، وود لو ان حواء
لم تفعل ذلك . على أنه شكرها وانصرف في خجل
اما هي ؟ !

فقد قبلته أخيرا ! . تلك القبلة التي كانت تفقدتها
بحياتها ! ! ووهت قواها فارتمت على مقعد قريب . . .
وكأنما تلقفتها أجنحة ملائكة راحت تغنيها ، وتشرف
بها على نعيم الخالدين . . .
وعادت حواء الى دارها قرب منتصف الليل ،
فانسلت الى غرفتها دون أن يستشعر بها أحد ، وأسرعت
إلى الصندوق الذي كانت أخفنه . فأخرجت منه ثوبا
وطرحة من حرير ابيض ، وأكليلا من زهر الليمون ،
وسرعان ما صارت في هيئة العروس . وجدت في مكانها
حينا . ورفعت عينيها إلى السماء . وراح قلبها يقول « رب
انى لن أكون كابليس حين غمضت عليه حكمتك فعصاك

ولكننى أرمى فى أحضانك طيبة طاهرة ! ثم عمدت إلى
طاولة صغيرة الى جانب السرير فاختطفت من فوقها
زجاجة .. ولبثت أمام المرأة حيناً تصغى إلى صوت خفى
يهتف بها « لا تزيدى عدد النقط ، ولا تسرفى فى
استعمال هذا الدواء ، فان الاكثار منه يؤذى القلب ،
وقد يوقفه .. اجعليه للضرورة القصوى » ولكنها
فى طرفة عين اجترعت ما فى الزجاجة كله !! ..

وبينا كانت الجدة تداعب « سروراً » فى احلامها
وبينا كان الحاج يصمم على أن يطلب من حواء
ثمان قفطان جديد له بمناسبة شفافها

وبينا كانت نجمة تعانق طيف ابن الجزار
كانت حواء مستلقية على سريرها فى هيئة العروس
تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وفى أذنيها صوت المغنيات
ينشدن لرمزى وعروسه انشودة الزفاف .

(تمت)